

الْبَيِّنَاتُ
فِيهِمْ عُلُومُ الْقُرْآنِ
لِلنَّاشِئَةِ

الجزء الثالث

تأليف : محمد عمر الحاجي

ماجستير في الفقه الإسلامي وأصوله



البيان في علوم القرآن

للناشئة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بأية طريقة من طرق

الطبع أو التصوير ..

إلا بإذن خطي من دار النور

طباعة وتنضيد وإخراج

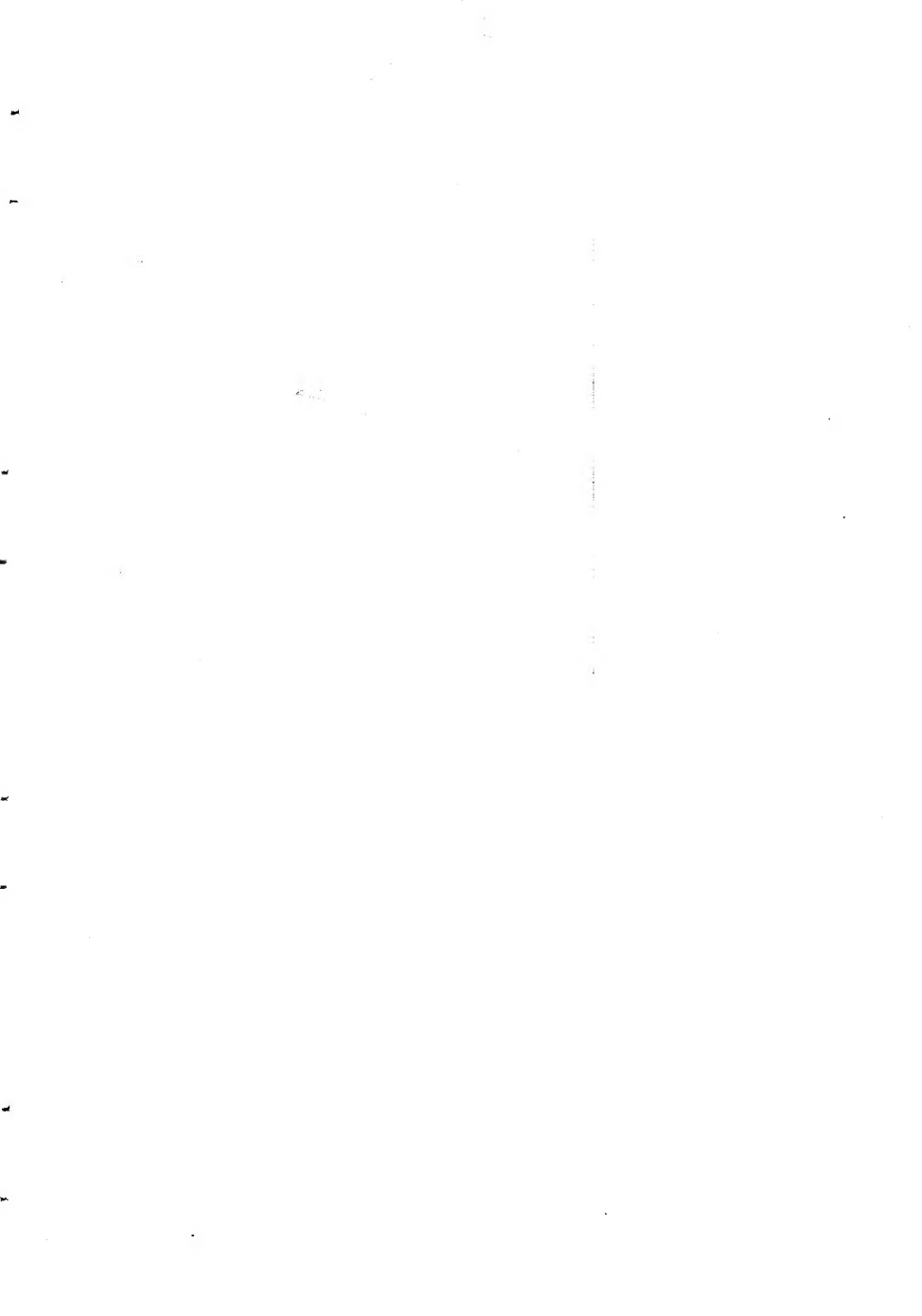
دار النور

للطباعة والتنضيد الضوئي

دمشق - سبع بحرات - شارع جول جمال - مقابل وزارة المالية ص. ب ٨٣٧٤ هاتف ٤٤٢٤٨٤٦

جزى الله كل الخير لكل من ساهم في هذا العمل

علم التفسير.....



١- ما هو التفسير؟

١- من الناحية اللغوية: له تعريفات كثيرة أهمها:

أنه يعني الإيضاح والتبيين، كما في قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (١)

أي أحسن بياناً وإيضاحاً وتفصيلاً...

لذلك نجد في لسان العرب لابن منظور: التفسير هو البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسراً، وفسره أبانه، والتفسير مثله... ثم قال: التفسير كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل... (٢)

٢- من ناحية الاصطلاح: أيضاً له تعريفات كثيرة، من ذلك ما قاله الزهر كشي: أنه العلم الذي يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات (٣)

(١) سورة الفرقان: ٣٣/

(٢) ٣٦١/٦

(٣) البرهان: ١٣/٢

٢. ما هو الفرق بين التفسير والتأويل؟

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة، متباينة، نورد بعضها:

١- عند المتقدمين كأبي عبيدة وغيره، أن التفسير والتأويل هما بمعنى واحد: مترادفان...

٢- عند الراغب الأصفهاني: أن التفسير أعم من التأويل، وأن التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ، بينما التأويل في المعاني...

٣- عند البغوي وغيره: التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط، والتفسير هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها... أي النسبة بينهما التباين...

٤- لكن أقربها إلى الواقع هو أن التفسير ما كان مراجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان مراجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا ينجز به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محملات اللفظ بالدليل،
والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ
ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب
العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك (١)

قال الزهر كشي: وكان السبب في اصطلاح كثير على
التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على
الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط... (٢)

(١) بقصر ف من التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ١٩/١ - ٢١.

(٢) الإقناع: ١٨٣/٢ والبرهان أيضاً.

٣ - لكن ما الحاجة إلى التفسير؟

عندما قلنا إن القرآن الكريم هو كتاب أنزل الله واضح المعاني مبين سهل، وأنه أنزل ليفهمه الناس ويطبقوا أحكامه . . . فلماذا وُجد علم التفسير إذاً؟

وعلى هذا السؤال أجوبة كثيرة من ذلك ما قاله الدكتور البوطي:
١- الوجه الأول: أن القرآن جامر على أسلوب يصلح أن يخاطب به طبقات الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، فهو يعطي كلاً من معانيه وأحكامه قدر طاقته وما يتسع له فكره، فإذا أراد القارئ أن يستشف منه ما وراء ذلك وينتهي في سبر أغواره إلى أكثر مما فهمه منه بطبيعته وفكره فإن سبيله إلى ذلك الرجوع إلى من هم أوسع منه علماً وأغزر ثقافة وفهماً ليصروه بما وراء الذي انتهى عنده علمه من دلائله ومعانيه . . . فهذا وجه من وجوه الحاجة إلى التفسير . . .

٢- الوجه الثاني: أن القرآن - كما قال الزمخشري - كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسمع منه، ولا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأمثال والأشعار، فإن الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلم بأن يسمع منه أو بمن سمع منه^(١)

(١) البرهان للزمخشري: ١٦/١

ومن هنا تجدد القرآن محاطاً بسور من الرهبة والجلال يمنع قارئه أن يسرع فيقتحم إليه بالشرح والتفسير كما يشرح الكتب الأخرى .

وإنما الشأن أن يتوسط إلى ذلك بما قد أثر من تفسير النبي ﷺ له أو أثر من تفسيرات الصحابة رضوان الله عليهم .

فهو الذي أوحى إليه القرآن مباشرة، وهو الذي أمره الله عز وجل بأن يبين للناس ما نزل إليهم، فهذا وجه ثانٍ في الحاجة إلى تفسيره والاطمئنان إلى حقيقة معانيه المرادة منه .

٣- الوجه الثالث: إن القرآن كتاب يحوي بين دفتيه مبادئ العقيدة والتوحيد، كما يحوي مبادئ الشريعة وأحكام المحلل والمحرام، ويشمل التوجيهات الأخلاقية ومبادئ التنظيمات الاجتماعية، إلى جانب ما فيه من عبر الأمم الماضية والإخبار عن المغيبات ووجوه النقاش والحجاج، فلا جرم أنه إنما يتناول كل ذلك ويعالجه بأسلوب من الترسين والاختصار يضمن للقارئ الفهم الموجز الكلي من ناحية، ويحمله على البحث والدراسة والوقوف على تفصيلات ذلك من ناحية أخرى، فكانت الحاجة إلى تفسير القرآن من هذه الجهة استجابة للقرض المتعلق بتفصيل موجزاته وشرح كلياته .

٤. الوجه الرابع: أن المعنى الذي يراد بتفسير القرآن بعد كل هذا الذي ذكرناه ليس متوقفاً على شرح الكلمة وترجمتها، وإنما هو يتعدى ذلك إلى وجوه وأنواع من الاستنباطات المتعلقة بدقائق المباحث والعلوم، تختلف حسب اختلاف وجهة المفسر واختصاصه من عربية وأصول فقه وتوحيد وكونيات.

والقرآن ذو دلالات متسلسلة لا تكاد تنتهي، وإنما سبيل الكشف عنها أو عن بعضها، بعكوف أرباب الاختصاصات عليه بالدرس والبحث والتفسير...

... إنها أسباب لا تتنافى مع كون القرآن كتاباً عربياً في عوج، ولا تتعارض مع ما هو مقرر ثابت من أن الله إنما يخاطب عباده بما يفهمون... (١)

.. لذلك وفي العهد الأول من نزول القرآن، كان الصحابة لا يفهمون بعد مقاصده فيسألون رسول الله ﷺ:

(١) بتصريف من كتاب (من روائع القرآن) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ٧١ - ٧٢

فعندما نزل قول الله تعالى:
﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (١)

فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه!! ففسره النبي ﷺ، واستدل عليه بقوله:
﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (٢)

وفي ذلك يقول الإمام السيوطي بعد كلام طويل:
.. ونحن محتاجون إلى ما كانوا محتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم
يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة
بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير، ومعلوم أن تفسير بعضه
يكون من قبل بسط ألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، وبعضه من قبل
ترجيح بعض الاحتمالات على بعض (٣)

٤. أشرف الصناعة: تفسير القرآن الكريم!!
قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: في قول الله تعالى:

-
- (١) سورة الأنعام: ٨٢/
(٢) سورة لقمان: ١٣/
(٣) للتوسع يراجع الإتيان: ١٩٦/٤

﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾^(١)

الحكمة: هي المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمة ومتشابهة، ومقدمة ومؤخرة، وحلاله وحرامه، وأمثاله، وفي رواية أخرى عنه: أن الحكمة هي تفسير القرآن، لأنه قد قرأه البر والفاجر...
وعند ما كانوا يقرؤون قول الله تعالى:

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾^(٢)

كان بعضهم يقول: كمجاهد وقادة...
ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني... ذلك
لأن من لا يعرف تفسير الآية كان من غير العالمين...
لهذا ورد على لسان الفاروق: رضي الله عنه - أنه كان يقول: من
قرأ القرآن فأعرب به، كان له عند الله أجر شهيد...
وهذا المعنى نفسه قال فيه الصديق أبو بكر - رضي الله عنه -:

(١) سورة البقرة: ٢٦٩/

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣/

لأن أعرب آية من القرآن أحب إليّ من أن أحفظ آية . وليس المقصود بالإعراب هنا: الإعراب النحوي، إنما المقصود به بيان المعنى والتفسير . . . وهذا الكلام مقتبس من قول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: أعربوا القرآن يدلّكم على تأويله، لذلك نقل السيوطي مايلي: وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم الثلاثة الشرعية.

ثم قال:

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن، بيان ذلك أن شرف الصناعة إما يشرف موضوعها مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة، وإما يشرف عرضها، مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة، لأن غرض الطب إفادة الصحة، وغرض الكناسة تنظيف المستراح، وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه، فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الطب، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق إلا وهي مفتقرة إلى الفقه، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين، بخلاف الطب، فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

إذا عرف ذلك، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجبهات الثلاث، أما من جهة الموضوع: فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الردة، ولا تقتضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو الإعتصام بالعمروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفتنى.

وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى . . . (١)

إذا:

أنزل الله تعالى القرآن ويسره تيسيراً عجبياً، كما في قوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتلدريه قوماً لداً﴾ (٢)

(١) الاثنان: ١٩٧/٤ - ١٩٩

(٢) سورة مريم: ٩٧/

وقوله:

﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ (١)

وقوله:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (٢)

ولكنه بعد تبليل الألسنة، وفشوا اللحن، وانتشار العامية والبعد عن الفصحى، صام الناس في حاجة إلى تفسير الألفاظ والتراكيب التي قد يغيب معناها عن أذهانهم أو يخفى مدلولها عن إدراكهم، هذا مع أن القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا، وقد ضخته الله من علومهما وما يتصل بهما من المعارف ما تتفاوت في إدراكه عقول الناس... هذا الكلام يدل دلالة واضحة على مقدار حاجة الناس إلى التفسير لمعرفة معاني القرآن وأسرارها وحكمه...

(١) سورة الحان: ٥٨/

(٢) سورة القمر: ١٧/

٥ . المسيرة التاريخية لعلم التفسير:

العودة إلى التاريخ ليحدثنا عن نشوء ومن ثم تطور علم التفسير،
يعطينا صورة واضحة مفصلة عن كيفية هذا العلم . . .

لذلك ولوطال بنا الأمر فمن الضرورى الرجوع إلى هذه البذرة
التاريخية والتي تقسمها إلى أقسام هي:

أولاً - في عهد الرسول ﷺ والصحابة:

كما مر معنا، فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى حسب
لهجاتهم، ومع أنهم كانوا أمة أمية، لكن كان عندهم من فنون
اللغة الشيء الكثير: كالشعر ومبارياته وأسواقه . . . وكفن
الخطبة . . . والكنایات والایحانر والاطناب . .

أما كيف فهم رسول الله ﷺ القرآن، وكيف فهمه الصحابة
الأكابر فملخصه ما يلي:

أما النبي الأعظم صلوات الله عليه فقد فهم القرآن جملة وتفصيلاً،
وهذا أمر بهي واردة في كتاب الله عز وجل:
﴿إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَهُ وَقُرْآنَهُ إِذَا قُرْآنَاهُ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا

بيانه ﴿١﴾

لذلك لا يستطيع الإنسان أن يشك في أن رسول الله ﷺ يعلم معاني القرآن كله...

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد فهموا من القرآن أحكامه وظاهره. أي جملته.

أما معرفة دقائقه وجزئياته وشامده ووامرده، فذاك أمر بحاجة إلى البحث والنظر، ومن ثم بحاجة إلى العودة إلى رسول الله ليسألوه عما لم يفهموه من معاني القرآن...

من هنا نستطيع أن نخبر بأن الصحابة لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم القرآن: ذلك أن بعضهم - وهم من أكابر الصحابة - قد أشكل عليه بعض المعاني القرآنية...

والسبب في ذلك التفاوت في القدرات العقلية، ومعرفة اللغة العربية والتي لا يستطيع الإحاطة بعلومها إلا سيدنا رسول الله الذي أوتي ذلك من عند الله تعالى، وهناك الأمثلة الكثيرة حول هذه الفكرة:

(١) سورة القيامة: ١٧ - ١٩ /

. فهذا عبد الله بن عباس يقول: كنت لا أدري ما فاطر السماوات
حتى أتاني أعربا بيان يتخاضعان في بئر.

فقال أحدهما: أنا فطرتهما.

وقال الآخر: أنا ابتدأتهما.

وهذا من؟ إنه عبد الله بن عباس ترجمان القرآن وجبر الأمة، ومع ذلك
لم يعرف معنى فطر!!

وذاك أنس يقول: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه - على المنبر
قوله تعالى:

﴿وفاكهة وآبأ﴾^(١)

فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الآب؟

وهو أمير المؤمنين عمر الذي قال عنه رسول الله ﷺ بأنه الملمم، إذاً
فكيف بغيره؟^(٢)

(١) سورة عبس: ٣١/، والآب: هو ما ترعاه للبهائم....

(٢) للتوسع راجع الموافقات للشاطبي: ٨٨/٢، والاتقان للسيوطي: ١١٥/٢

. إذاً: ما هي مصادر التفسير في هذا العهد ؟

اعتمد الصحابة الكرام في هذا العهد - لتفسير القرآن الكريم - على أربعة مصادر هي:

أ . القرآن يفسر بعضه البعض !!

طالما أن القرآن كلام الله تعالى، فهل يوجد أحد يستطيع أن يفهم معناه أكثر من مُنزه تعالى ؟

لذلك فلا بد لمعرفة المقصود من بعض الآيات أن نتعرف على بقية الآيات التي تتحدث في هذا الموضوع . . مثال على ذلك قصة سيدنا موسى - عليه السلام . فلنكي نتعرف على التفاصيل من جميع الجوانب، لا بد من العودة إلى المواضع التي وزدت فيها:

كما في سورة البقرة في عدة آيات وفي مواضع متنوعة، كذلك في آل عمران الآية: ٨٤، والنساء: الآية ١٥٣ و١٦٣، والمائدة: ٢٠/ - ٢٤/ والآنعام: ٨٤ و٩١ و١٥٤/ وفي كثير من سور القرآن الكريم وعندما نستجمع هذه الآيات نعرف المراد من قصة سيدنا موسى كاملة

ومثلها أيضاً قصة سيدنا آدم - عليه السلام - مع اللعين إبليس حيث
ومردت مسهبة . مطولة - في بعض المواضع، ومردت مختصرة في مواضع
أخرى ...

كذلك فلا بد من تحميل المجل على المين، كما في قول الله تعالى:

﴿لَا تَلْوُكُمُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (١)

ففسرها الآية الأخرى، وهي قول الله تعالى:

﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ .. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢)

وكقوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ (٣)

بأنه العذاب الأدنى المعجل في الدنيا، وذلك لقوله تعالى في آخر هذه

السورة:

﴿فَإِنَّمَا تُرْنِيكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تُتَوَفِّيكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ (٤)

وهكذا ففي القرآن أمثلة كثيرة على ذلك ...

(١) سورة الأنعام: /١٠٣/

(٢) سورة القيامة: /٢٢ - ٢٣/

(٣) سورة المؤمن: /٢٨/

(٤) سورة المؤمن: /٧٧/

كذلك فلا بد من الجمع بين ما يتوهمه الإنسان أنه مختلف .

ومثاله: أن القرآن أورد في بعض آياته أن خلق آدم - عليه السلام - كان من تراب، كما في قوله تعالى .

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب...﴾ (١)

لكن نجد في غيرها، أن خلق آدم كان من طين:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال
ءأسجد لمن خلقت طيناً؟﴾ (٢)

ونجد في مكان آخر، أنه خلق من صلصال:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حماء مسنون﴾ (٣)

... هذا يدلنا على الأطوار التي مر بها سيدنا آدم - عليه السلام -

وذلك فلا بد من معرفة القراءات وتحميل بعضها على بعض، وكما مرأينا
فلمعرفة القراءات دور مهم في مجال التفسير، كما ورد عن عبد الله بن عباس أنه كان يقرأ قوله تعالى:

(١) سورة آل عمران: ٥٩/

(٢) سورة الاسراء: ٦١/

(٣) سورة الحجر: ٢٦/

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾^(١)

كان يريد عليها - قراءة وتفسيراً - في موسم الحج ...

كذلك لا بد من معرفة تفسير القرآن بالقرآن، حمل المطلق على المقيد، ومثاله: آية الوضوء والتيمم، حيث الأيدي مقيدة في الوضوء إلى المرافق، بينما هي مطلقة في التيمم، لذلك قال الغزالي نقلاً عن أكثر الشافعية: أن التقيد في التيمم بالمرافق أيضاً، من باب حمل المطلق على المقيد، والآية الجامعة للحكمين هي قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١)

(١) سورة البقرة: ١٩٨/

(٢) سورة المائدة: ٦/

... هذه بعض الجوانب التي تعرّف عليها الصحابة لمعرفة كيف
فسر القرآن بعضه البعض^(١)

ب . تفسير الرسول ﷺ للقرآن: هذا ما أشار إليه القرآن
الكريم ذاته، بقوله تعالى:

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه
وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾^(٢)

وقوله:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم
يتفكرون﴾^(٣)

وقوله:

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله
ولا تكن للخائنين خصيماً﴾^(٤)

(١) للتوسع يراجع التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ٣٩/١

(٢) سورة النحل: ٦٤/

(٣) سورة النحل: ٤٤/

(٤) سورة النساء: ١٠٥/

وقد أشار إلى ذلك سيدنا رسول الله ﷺ بقوله في حديث طويل: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١)

لذلك كان الواحد من الصحابة إذا التبس عليه أمر في معنى آية من آيات القرآن، مراح إلى رسول الله يطلب منه تفسيرها، من هنا نجد أن في كتب الصحاح والسنن أحاديث كثيرة تحت عنوان باب التفسير، فلو أخذنا مثلاً كتاب مختصر صحيح البخاري للزبيدي لوجدنا فيه باباً مستقلاً تحت عنوان: كتاب التفسير، وفيه أحاديث نبوية تشرح آيات حسب تسلسل سور القرآن الكريم، وهي من الرقم (١٦٣٠) وحتى الرقم (١٧٢١) ومنه رقم (١٦٨٤) هو تفسير لقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢)

فعن كعب بن عُجرة - رضي الله عنه - قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟

(١) رواه أبو داود، وروى مثله الترمذي وابن ماجه.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٦/

قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما
صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى
آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»

لكن المشكلة هنا !!

هي هل أن النبي فسر القرآن كله؟ أم أنه فسر الشيء القليل
منه؟

انقسم العلماء إلى فريقين بالنسبة إلى هذا الموضوع:

الفريق الأول قالوا: بين رسول الله ﷺ للصحابه كل معاني
القرآن، وعلى رأس هؤلاء الإمام ابن تيمية - رحمه الله - ولديهم أدلة على
هذا الرأي (١)

الفريق الثاني قالوا: لم يبين رسول الله ﷺ لأصحابه من معاني القرآن إلا
القليل، وعلى رأس هؤلاء الإمام السيوطي - رحمه الله - ولديهم أيضاً أدلة
على ذلك (٢)

(١) للتوسع يراجع مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: ٣٥ - ٣٦

(٢) للتوسع يراجع الاقتان: ١٧٩/٢.

لكن يبدو وحسب تعبير - د . الذهبي - أن كلا الفريقين قد غالى في ذلك، والإختصار: أن الرسول ﷺ بين الكثير من معاني القرآن، لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما تعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يُعذر أحد في جهالته، كما صرح بذلك ابن عباس بقوله: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

كذلك، فلو أن النبي ﷺ قد بين للصحابة كل معاني القرآن فلماذا حدث بينهم خلاف في تأويل بعض الآيات ؟
أما أوجه بيان السنة للكتاب:

فقد تحدث في ذلك مطولاً - د . الذهبي - وملخص القول:
١ - بيان الجمل في القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، من الأمثلة على ذلك:
.. بيانه - صلوات الله عليه - لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها: «(صلوا كما رأيتموني أصلي)»

... تفسيره للخيط الأبيض والخيط الأسود: بأنه بياض النهار
وسواد الليل ...

... تقييده اليد في قول الله تعالى:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من
الله﴾ (١)

باليمن ...

٢- بيان معنى لفظ أو متعلقة: كيان المغضوب عليهم باليهود،
والضالين بالنصارى ...

٣- بيان أحكام مزائدة على ما جاء في القرآن، كتحرير
نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر ...

٤- بيان النسخ: فبين صلوات الله عليه أن كذا نسخت آية كذا،
أو حكم كذا نسخه حكم كذا ...

٥- بيان التأكيد: أي أن تأتي السنة موافقة لما جاء به الكتاب،
ويقصد بذلك تأكيد الحكم وتقويته، وذلك كقوله عليه الصلاة
والسلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»

(١) سورة المائدة: /٣٨/

فإنه يوافق قول الله تعالى ويؤكد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...﴾ (١)

إلى غير ما هناك من التفسيرات... (٢)

ج. التفسير بالإجتهد والاستنباط:

كان الصحابة يجتهدون في تفسير بعض الآيات حين لا يجدون آيات أخرى تفسرها، ولم يفسرها رسول الله ﷺ، وكان اعتمادهم على بعض أدوات التفسير: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها، ومعرفة عادات العرب واليهود والنصارى - وقتها - وقوة فهمهم وسعة إدراكهم، ومعرفة أسباب النزول...

لذلك اختلفوا اختلافاً يسيراً في فهم معاني القرآن، كما في رواية البخاري عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر - رضي الله عنه - يدخلي مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟

(١) سورة النساء: ٢٩/

(٢) بتصرف واختصار من التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ٥٥/١ - ٥٩

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم،
فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليرهم .

فقال: ما تقولون في قوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ (١)

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا،
وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً .

فقال لي: أكن ذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا

فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله
والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً .

فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول (٢)

د . التفسير عن طريق الرجوع إلى أهل الكتاب !!

(١) سورة النصر: /كاملة/

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٥١٩/٨ ، وللتوسع في ذلك يرجع

الموافقات للشاطبي: ٣٨٤/٣

طالما أن القرآن أورد بعض القصص عن الأمم الغابرة، خاصة ما يتعلق بقصص الأنبياء، لكن كان ذلك بشكل مختصر غير متعرض لتفاصيل وجزئيات، لذلك راجع بعض الصحابة يسألون بعض علماء اليهود والنصارى عن ذلك، لأن منها ما ورد في التوراة والإنجيل، لكن كان هذا النوع ضمن دائرة محدودة ضيقة، خاصة أن الصحابة علموا يقيناً أن أولئك لديهم عقيدة محرقة مبدلة، وأن كتبهم وقع فيها التزوير . . .

من هنا كان التعامل معهم بحذر، وضمن ما يوافق المنهج الإسلامي، لكن مع كل ذلك فقد كان لهذا الأمر - فيما بعد - من الخطورة الشيء الكثير، خاصة اليهود الذين أدخلوا بعض الأمور، وأصبحت تسمى فيما بعد الأسرائيليات. والتي سنتحدث عنها تفصيلاً فيما بعد إن شاء الله تعالى . . . (١)

(١) للتوسع في ذلك يراجع الاتقان للسيوطي: ١١٣/٢

وتفسير ابن جرير: ٤٣/٢٠، والتفسير والمفسرون: ٥٧/١ - ٦٢

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال الإمام السيوطي: اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير...

أما الخلفاء الأربعة فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب. والرواية عن الثلاثة نزرمة جداً، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه للحديث، ولا أحفظ عن أبي بكر في التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة، أما علي فروي عنه الكثير... (١)

لذلك سنقف قليلاً عند أشهر الصحابة في التفسير، لنثنين لحاحاً عن كل واحد منهم.

وما دامر حول تفسيرهم... ولندع الكلام عن الخلفاء الثلاثة وعن البقية من العشرة أيضاً، وذلك لأنه لم يصلنا عنهم في التفسير إلا القليل.

(١) للتوسع يراجع الاتقان للسيوطي: ٢٣٣/٢

محمد الله بن عباس:

- ابن عمر رسول الله، خالته ميمونة أم المؤمنين، لأنهم رسول الله ﷺ في صغره، طال به العمر فكثرت علمه وفقهه حتى انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، كان عمر رضي الله عنه يجلسه مع كبار الصحابة ويقر به منه وكان يقول عنه: ذاك قتي الكهول، إن له لساناً مستولاً، وقلماً عقولاً...

جُمعت له العلوم حتى قال عطاء: ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع...

بل إن ابن عمر رضي الله عنهما قال فيه: ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد ﷺ... (١)

أما سبب شهرته هذه، ونبوغه في العلوم خاصة في التفسير:

١- دعاء النبي ﷺ له: ((اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)).

٢- نشأته في بيت النبوة وملازمته للنبي ﷺ...

(١) للتوسع يراجع أسد الغابة: ١٩٢ - ١٩٥، أو سير أعلام النبلاء أو الأعلام للزركلي أو حياة الصحابة للكاتب دهلوي.

٣. ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة رسول الله فأخذ عنهم الكثير، وهذا ما نقله لنا هو عن نفسه: وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار، فإن كنت لأتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسقى على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم انصرف!!

٤. حفظه للعربية ومعرفة غريبها وأساليبها...

٥. بلوغه مرتبة الاجتهاد، وشجاعته في إبداء رأيه... (١)

منزلته في التفسير: يتبين ذلك في قول علي رضي الله عنه: كأنما ينظر إلى الغيب من ستر مرقيق...، وكثيراً ما مرجع الصحابة إليه يسألونه عن معنى آيات وآيات في كتاب الله تعالى...

كان يرجع إلى أهل الكتب السماوية السابقة لكن ضمن مجال

ضيق...

وكان يفسر القرآن ببعض الآيات من الشعر العربي... (٢)

(١) لشرح ذلك والتوسع فيه يراجع التفسير والمفسرون: ٦٥/١ - ٨٠

(٢) يراجع الاتفاق: ١٢٠/١، والموافقات: ٨٨/٢.

- لكن المشكلة أن الكثير مما وصل إلينا مما نسب إلى ابن عباس في التفسير مدسوس عليه . . . والقول الفصل في ذلك ما مروى عن الشافعي قوله: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث . . . وأسباب الوضع عليه كثيرة أهمها: أنه من بيت النبوة، وأنه جدّ العباسيين، فكان من أراد التزلف لهم وضع تفسيراً ينسبه إلى جدهم عبد الله بن عباس وهو بريء من ذلك . . .

محمد بن مسعود:

خدم رسول الله في أكثر شؤونه حتى أنه كان يدخل بيته بلا حجاب . هذا الأمر جعله يسمع أشياء كثيرة لم يسمعها غيره . . .

كان من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأعلمهم به، حتى أن الفاروق عمر عندما أرسله إلى الكوفة، قال لأهلها: وقد آثرتمكم بعبد الله على نفسي، لذلك يعد أول من أسس مدرسة الفقه بالرأي في العراق . . .

ويتبين لنا قيمته في التفسير من خلال رواية مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم

فيه نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني
تتناوله المطايا لأتيته...

وقد نقل تفسيراته أهل الكوفة - خاصة - لجلوسه بينهم، فتعلمدوا
على يديه، وكان منهم: مسروق الهذاني، وعلقمه النخعي... وقد
تكلم عن صحة وضعف الروايات المتصلة إليه علماء التفسير والحديث
والجرح والتعديل...

المهم أنه الرجل الأكثر رواية للتفسير بعد ابن عباس رضي الله
عنهما... (١)

علي بن أبي طالب:

ابن عمر رسول الله ﷺ وصهره علي ابنته فاطمة... كان مجزاً
في العلم، قوي الحججة، أوتي حظاً وافراً من الفصاحة والخطابة والشعر،
وقد دعا له رسول الله ﷺ: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه» وقد عرف
الصحابة والتابعون لعلّي هذه المكانة، حتى قيل لعطاء: أما كان في
أصحاب محمد - صلوات الله عليه - أعلم من علي؟

(١) للتوسع في ذلك يراجع: أسد الغابة، والاتقان، والبرهان، والتفسير
والمفسرون...

قال: لا، والله لا أعلمه....

أما مكاتبه في التفسير: فكان عالماً في أسباب النزول ومواقع التأويل، حتى أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، وإلا له ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن....

لكن المشكلة هي أنه دُسن عليه الكثير، وذلك لقربه من سيدنا رسول الله ولغلاة بعض الناس في حبه، مما أدى إلى التبريث عند علماء المصطلح والحديث في الأخذ بروايات ومردت عنه... لكن مرويت عنه من طرق ثلاثة...^(١)

أبيّ بن كعب:

بعد أول من كتب لرسول الله ﷺ، كان سيد القراء، وأحد كتاب الوحي، وقد قال عنه رسول الله: «... وأقرؤهم أبيّ بن كعب» وأثنى عليه الفاروق عمر رضي الله عنه بقوله: أبيّ سيد المسلمين... ولعلّ اطلاعه على كتب السماء خاصة التوراة. لأنه كان جبراً من أخبار

(١) للتوسع يراجع: مقدمة ابن الصلاح، وأسد الغابة، والتفسير والمفسرون، والافتان،

اليهود . جعله مشهوراً في تفسير القرآن الكريم . إضافة إلى كونه من
كُتَّاب الوحي ...

كثرت الروايات . في التفسير عنه ، لكن العلماء تتبعوا ذلك عن
طريق النقد . تعديلاً وتحريراً . وكان أهم الطرق عنه :

الرائزي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي ، وهذه طريق
صحيحة . . . وقد ورد عن أبي نسخة كبيرة في التفسير ، خرج منها ابن
جرير والحاكم وأحمد بن حنبل . . . (١)

ما هي قيمة التفسير المأثور عن الصحابة ؟

يلخص د . نور الدين عتر هذا الموضوع بقوله : تفسير الصحابي إذا
كان مما يرجع إلى سبب النزول وكل ما ليس للرأي فيه مجال فله
حكم المرفوع ، وأما الذي يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام
لم يسنده إلى الرسول ﷺ ، فما كان من قبيل المرفوع لا يجوز للمفسر مرده
اتفاقاً ولا يعدل عنه إلى غيره ، وما حكم عليه بالوقف اختلف أنظار
العلماء فيه ...

(١) للتوسع يراجع أسد الغابة ، وميزان الاعتدال ، والتفسير والمفسرون ،
الاتقان ...

فذهب فريق إلى عدم وجوب الأخذ به لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ فهذا يوجب الأخذ به احتياطاً، ولأن الصحابي إذا فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه... (١)

ما هي مميزات التفسير في هذه المرحلة؟
١- لم يُفسر القرآن كله، وإنما فسر الغامض منه وحسب الحاجة...

٢- قلة الاختلاف بين الصحابة في التفسير ناتج عن قربهم من رسول الله ﷺ...

٣- كثيراً ما كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يُلزمون أنفسهم بفهم معانيه تفصيلاً...

٤- اقتصروا على توضيح المعنى اللغوي بأخصر لفظ، مثال على ذلك قوله تعالى:

﴿...فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور

(١) للتوسع يراجع محاضرات في علوم القرآن: ١٤٦

فقالوا في ذلك: أي غير متعرض لمعصية...

٥- نذرة الاستبطاء العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية
وعدم انتصار أحدٍ منهم لمذهب معين...

٦- لم يُدون شيء من التفسير في هذا العصر، لكن أثبت بعض
الصحابة على هامش مصحفه بعض التفسيرات لكلمات معينة...

٧- اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، فكان يروى
التفسير هكذا ومراء بعضه البعض دون تصنيف ولا تبويب ولا
فهرسة... (٢)

٢- التفسير في عهد التابعين:

مع الفتوحات الإسلامية رحل الصحابة الكرام إلى هنا وهناك
تأمر كين مدينة رسول الله ﷺ، ولم يحملوا معهم - في تلك الرحلة - الدنيا
وحطامها، إنما حملوا ما سمعوه وما حفظوه من سيدنا رسول الله ﷺ.

(١) سورة المائدة: ٣/

(٢) بتصرف من التفسير والمفسرون: ٩٧/١ - ٩٨

وعلموا ذلك للناس، فكثرتلامذتهم من التابعين، وظهرت ثلاث مدارس في التفسير . . . وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية . رحمه الله .:

وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كجاهد، وعطاء بن أبي مراح، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبیر، وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما سيميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل نريد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب . . . (١)

إذا هذه المدارس الثلاثة هي: مدرسة مكة ومدرسة المدينة، ومدرسة العراق، أما الحديث عنها فيطول، لكنني سأختصر جداً:

١- مدرسة التفسير في مكة:

عميدها عبد الله بن عباس . رضي الله عنه . والمتفوقون فيها: مجاهد بن جبیر (ت ١٠٣هـ)، وسعيد بن جبیر (ت ٩٤هـ) وعكرمة مولى ابن عباس

(١) مقدمة في أصول التفسير، تحقيق د. عدنان زرور: ٦١

(ت ١٠٥هـ) وطاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ) وعطاء بن أبي مراح
(ت ١١٤هـ)

... تعد هذه المدرسة أعلم المدارس بالتفسير في عصر
التابعين، وكان أعلم من فيها سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبير، حتى لقد
ذكر الإمام النووي بسنده إلى مجاهد أنه قال: عرضت القرآن على ابن
عباس ثلاثين مرة... ثم قال النووي: كان أعلمهم بالتفسير
مجاهد...^(١) والذي يميز مجاهد هذا عن غيره: أنه كان يسأل ابن عباس
ويكتب تفسيره. لكن بشكل بدائي. لا كما نرى اليوم من التفسير
والتأليفات... وللحديث عن كل واحد من هؤلاء ومكاته في
التفسير، وعمّا قيل عنه، وما ضُفّ به وما...^(٢)

٢- مدرسة التفسير في المدينة المنورة: تتلمذ على يد عميدها أبي
بن كعب خلق كثير، كان أبرزهم:

أبو العالية مرفيع بن مهران الرياحي (ت ٩٠هـ) ومحمد بن كعب
القرظي (ت ١١٨هـ) وكان ثقة عدلاً...

(١) تهذيب الأسماء واللغات: ٨٣/٢

(٢) يراجع التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي، واللغات: ٨٣/٢

ونريد بن أسلم مولى عشرين الخطاب، عرف عنه تفسير القرآن
بالرأي وكان ثقة عدلاً شهد له العلماء المتقدمون والمتأخرون، أخذ عنه
مالك بن أنس وغيره (ت ١٣٦هـ)

٣- مدرسة التفسير في العراق:

واضع أساسها هو عبد الله بن مسعود، أما تلامذتها فهم كثير،
منهم: علقمة بن قيس (ت ١٠٢هـ) وكان ورعاً صالحاً ثقة أميناً وهو من
أشهر من نقل عن عبد الله بن مسعود ..

كذلك كان مسروق الذي أخرج له أصحاب الأحاديث الستة،
والأسود بن يزيد (ت ٧٥هـ)، ومرة الهذاني (ت ٧٦هـ) وعامر الشعبي
(ت ١٠٥هـ)، والحسن البصري شيخ أهل البصرة، كان غزير العلم،
مرجلاً فاضلاً نراه دائماً متواضعاً ثقة جامعاً ...

وكانت وفاته (١١٠هـ)، وقاده بن دعامه السدوسي
(ت ١١٧هـ) .. (١)

(١) يراجع: وفيات الأعيان، وتهذيب الأسماء واللغات، والاتقان والتفسير
والمفسرون.

ما هي قيمة التفسير المأثور عن التابعين؟

هناك خلاف في ذلك، لكن د. الذهبي يقول: والذي تميل إليه النفس، هو أن قول التابعين في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يؤخذ به عند عدم الرية، فإن ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتد عليه.

أما إذا أجمع التابعون على رأي، فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره... (١)

وهذا ما صرح به الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بقوله:

قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم، ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك... (٢)

(١) باختصار من التفسير والمفسرون: ١٢٨/١

(٢) مقدمة في أصول التفسير تحقيق د. زر زور: ١٠٥...

ما هي مميزات التفسير في هذه المرحلة ؟

١- دخول الأسر إيليات والنصرانيات في كثير من التفاسير: وكان ذلك عن طريق من أسلم منهم، فكانت قصص الأمم الماضية... عالقة في أذهانهم، فتساهل التابعون في وضعها ضمن سياق التفاسير. وهذا مأخذ عليهم....

٢- امتناع التفسير هنا بطابع الرواية والتلقي، كما أخذ منحى الاختصاص: مصري، كويتي، مكسي...

٣- ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فتأثر التفسير بذلك، لذلك كان قتادة بن دعامة الدوسي يخوض في القضاء والقدر - قدره. مما أدى إلى التحرج من نقل ما يقوم بتفسيره....

٤- كثير الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع فيما بعد بين المفسرين، لكن ذلك الاختلاف لم يكن خلافا تضادا إنما كان اختلاف تنوع مراجع إلى اختلاف في العبارة، أو التمثيل لها، أو لأنها تحمل معنيين، كما في الحديث عن معنى قسورة: حيث لها معنيين، الأول أنها تعني الرامي، والثاني أنها تعني الأسد... (١)

(١) للتوسع يراجع التفسير والمفسرون: ١/ ١٣١ - ١٤٠

٣- التفسير في عهد التدوين (من أواخر الأموي . . .)
في العهد السابق كتب البعض من التابعين ما وصله من التفسير،
لكن ذلك لم يكن بشكل مستقل - كما رأينا -

- لكن هنا دُوِّن الحديث الشريف، فدُوِّن معه التفسير، لكن ليس
كعلم مستقل إنما كباب من أبواب الحديث، وبرز من الذين قاموا بهذا
العمل: يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧هـ) وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)
ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ)
و... غيرهم

وكان كل أولئك من علماء الحديث، لذلك كان نقلهم
للتفسير نقلاً مسنداً على غرار نقلهم للأحاديث، ولكن للأسف لم يصل
إلينا من ذلك العمل شيء . . .

- ثم انفصل الحديث عن التفسير، ليصبح التفسير علماً قائماً بنفسه،
ووضع التفسير لكل آية حسب ترتيب المصحف، وكان ذلك على يد:
ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ)، وابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وابن المنذر
النيسابوري (ت ٣١٨هـ)، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) وأبو الشيخ بن حبان

(ت ٣٦٩هـ)، والمحاكم (ت ٤٠٥هـ) وابن مردويه (ت ٤١٠هـ) ...
وغيرهم.

وامتاز التفسير هنا بالنقل والإسناد فكان تفسيراً بالمأثور عدا
تفسير الطبري الذي مرجح بين الأقوال ...

لكن أفضل تفاسير هذه الفترة، والذي أصبح فيما بعد مستنداً هاماً
للمفسرين حيث جمع المأثور بالسند ثم ميز الصحيح عن غيره هو تفسير
الطبري ثم تفسير الرازي (ت ٢٧١هـ) ...

- ثم كانت أوسع الخطى في ذلك، وهي التي امتدت منذ العصر
العباسي حتى يومنا هذا: حيث اختلط التفسير بالرأي مع التفسير بالمأثور،
أو الفهم العقلي مع التفسير النقلي ...

ودخلت العلوم العقلية والاختصاصات العلمية، فجاء من يفسر
القرآن على حسب اختصاصاته ... لذلك ظهر تفسير الزمخشري -
الكشاف. وتفسير أبو السعود، وتفسير أبي حيان الأندلسي تحو منحي
الإعجاز البلاغي القرآني ... كذلك ظهر تفسير أحكام القرآن
للقرطبي (ت ٦٧١) ولا بن العربي (ت ٥٤٣هـ) والتي تهتم بالحلال
والحرام ... (فقه) ..

وظهر التفسير الإشاري - الصوفي الفيضي - كتفسير ابن عربي
وتفسير التستري، والشيرانزي

وظهر التفسير الفلسفي: كتفسير الفارابي (٣٢٩هـ) . . .

- أنواع التفسير بحسب المنهج العلمي:

هناك نوعان للتفسير حسب العلمي هما: بالمأثور، وبالرأي. ولتقف
عند شرح بسيط عن كل منهما . .

. التفسير بالمأثور:

وهو تفسير القرآن بالإعتماد على النقل والرواية والأخبار، ويشمل
تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن من الصحابة،
وأضاف بعضهم تفسير التابعين .

وهذا النوع من التفاسير هو أول أنواع علوم القرآن تدويناً، ويقال أن أول
من جمع هذا العلم هو الإمام مالك بن أنس . . .

أ . أسباب الضعف في التفسير بالمأثور:

يعود تسرب الضعف إلى أمور ثلاثة هي:

١- كثرة الوضع في التفسير: والمقصود بذلك الكذب في الحديث والتفسير، والسبب في ذلك التعصب المذهبي حيث اختلف المسلمون سياسياً عام (٤١هـ) فظهر المغالون والخوارج... ومراح كل حزب أوفية أو... تضع تفسيرات وأحاديث ثلاث مذهبها...

وكان لذلك أثر كبير على التفسير، حيث ضاع قسم كبير من هذا التراث بعد أن اختلط السقيم فيه بالصحيح، كما حدث للتفسير الوارد أو المنسوب إلى ابن عباس أو علي رضي الله عنهم أجمعين...

٢- دخول الاسرائيليات: كما مرأنا، في عهد الصحابة كان ذلك قليلاً، لكن في عهد التابعين فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، فظهر جماعة حشوا التفسير بكثير من القصص المتناقضة، هذا ما حدث في عصر التدوين أيضاً...

يقول د. عتر في ذلك:

هذا ويجب أن يكون المفسر انزاء الاسرائيليات يقظاً جداً، ليستخلص ما يوافق العقل ويتقيد بمقدار الضرورة ولا يتركب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد في سنة نبينا ﷺ بياناً للقرآن، ويجوز أن يذكر خلاف المتقدمين بشرط أن لا يطلقه بل ينبه على الصحيح وينيف غيره، لئلا

يوقع القراء في الإضطراب، على أن من الخير للمفسر كل الخير
الإعراض عن هذه الأسرئليات، وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد
صارفاً عن القرآن وشاغلاً عن التدبر في حكمته وأحكامه (١)

٣. حذف الاسناد: وذلك بعد عهد سفیان بن عیینة ووكيع بن
الجرح، حيث أُلّف في ذلك تفاسير محذوفة السند لذلك التبس الصحيح
بالعليل، وهذا أخطر الأسباب في وضع المأثور...

ب. أهم ما دَوّن من كتب التفسير بالمأثور:

لعل الباحث لا يستطيع أن يحصر ما جمع في ذلك، لكن أشهرها:

١. جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام المحدث المؤرخ المفسر الفقيه

محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)

٢. بحر العلوم، للفقيه الحنفي، الإمام نصر بن محمد بن محمد بن إبراهيم

السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)...

٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للمقرئ المفسر الحافظ أبو

اسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)

(١) مباحث في علوم القرآن: ١٥٠

٤. معالم التنزيل، للفقير الشافعي المحدث المفسر محي السنة الإمام الحسين بن مسعود المعروف بالبعوي (ت ٥١٠هـ)

٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للحافظ القاضي المغربي عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٠هـ)

٦. تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ اسماعيل بن عمرو بن كثير - تلميذ ابن تيمية - (ت ٧٧٤هـ) . .

٧. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (ت ٨٧٦هـ)

٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي (ت ٩١١هـ)

- التفسير بالرأي:

هو تفسير القرآن بالاجتهاد، وذلك بالاعتماد على كلام العرب، ودلالة الألفاظ، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وبقية الأدوات التي يحتاج إليها المفسر . .

وقد اختلف العلماء في جواز هذا النوع من التفسير، فبعضهم جوزه ذلك وبعضهم حرمه، والصحيح أنه يجب القول: التفسير بالرأي المذموم غير

جائز، والتفسير بالرأي المدوح جائز شريطة أن يُحدد بحدود، وهي ما
يجب معرفته ليحقق لشخص ما أن يفسر وأهمها:

معرفته بعلم اللغة، وبعلم النحو، وبعلم الصرف، وبالاشتقاق،
وبعلم المعاني والبيان والبدیع، وعلم القراءات، وعلم أصول الدين،
وعلم أصول الفقه، وعلم أسباب النزول، وعلم القصص، وعلم النسخ
والمنسوخ، وعلم الموهبة، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم... (١)

لذلك قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بعد أن ساق الآثار عن تخرج
من السلف من القول في التفسير:

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على
تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم
بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا مروى عن هؤلاء
وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه،
وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب
السكوت عما لا علم له به، كذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه،
لقول الله تعالى:

(١) للتوسع في ذلك يراجع الاتقان، وتفسير المنار...

﴿لَتَبْلُغَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (١)

ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «(من سئل عن علم فكتمه
الجم يوم القيامة بلجام من نار)» (٢)

- أهم كتب التفسير بالمأثور:

١. الكشاف للنزحشي (ت ٥٣٨هـ): اهتم بالبلاغة كثيراً...
 ٢. أنوار التنزيل وحقائق التأويل: للبيضاوي.
 ٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي (ت ٧٠١هـ)
 ٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود العمادي...
 ٥. مروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للأوسي...
- نقل السيوطي عن الزهر كشي خلاصة الشروط التي لا بد منها
لإباحة التفسير بالرأي، فراها تدرج تحت أربعة:
١. النقل عن الرسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

(١) سورة آل عمران: ١٨٧/

(٢) مقدمة في أصول التفسير: ١١٥، والحديث رواه الطبراني في الكبير
والأوسط

٢. الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل: إنه في حكم المرفوع مطلقاً،
وخصّه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

٣. الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدل
عليه الكثير من كلام العرب.

٤. الأخذ بما تقتضيه الكلام، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا النوع
الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: ((اللهم فقهه في الدين
وعلمه التأويل))^(١)

وأختتم القول برأي للشيخ الغزالي - حفظه الله - إذ يقول:

أعتقد أن الرأي الذي نهينا عن تفسير القرآن به هو الهوى، وهو أن
يكون الإنسان سيء النية أو متجهماً إلى مأرب من المأرب فيتلو القرآن،
ويلوي عنقه كي يخدم هذا المأرب أو هذا الرأي وهذا هو المحرم شرعاً،
لا أن يكون للإنسان رأي في تفسير القرآن مع ضوابط اللغة التي لا يمكن
اختراقها، لأننا لا نحب أن ندخل في شطحات المتصوفين التي ليس لها
ضابط، بل هي خطرات قلوب أدت بهم إلى أن يجعلوا للكلمات معاني
أخرى لا ضوابط لها، فمثلاً:

(١) الاتفاق للسيوطي: ٣٠٤/٢

فسروا قول الله تعالى:

﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ (١)

أي: اذهب إلى القلب!! وهذا كلام لا يُقال... لكن المهم،
أنه يُمكن أن نفهم القرآن فهماً اجتماعياً وسياسياً في حدود ضوابط
اللغة... (٢)

ولا بد من التنويه إلى مدى الإهتمام بتفسير القرآن الكريم على
مرّ الدهور والأيام، لذا نجد في الوقت المعاصر أنه قد ظهرت تفسيرات
قيمة لكتاب الله تعالى ومنها: في ظلال القرآن للسيد قطب، والميزان في
تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي والتفسير المنير في العقيدة
والشريعة والمنهج للدكتور وهبة الزحيلي وتفسير المنار للشيخ محمد
رشيد رضا، وتفسير المراغي للشيخ محمد المراغي... وغيرهم..

(١) سورة النازعات: /١٧/

(٢) كيف نفهم القرآن (بتصرف): ١٩٤ - ١٩٦

إعجاز القرآن.....

7

١. القرآن كله معجز!!

تحدّى الله سبحانه وتعالى وفي صريح آياته العرب والعالمين بمعجزة القرآن جملة، فقال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ .. فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ (١)

فعبجروا عن ذلك، ثم خفف البيان الإلهي التحدي إلى أقلّ من ذلك بكثير، فقال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون؟﴾ (٢)
فحاولوا... وحاولوا... لكنهم عجزوا!!

فجاء التحدي بلهجة أخف، فقال الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (٣)

(١) سورة الطور: ٣٣ - ٣٤ /

(٢) سورة هود: ١٣ - ١٤ /

(٣) سورة يونس: ٣٨ /

وبقي التحدي قائماً، وهم، من هم ؟ !

إنهم العرب الفصحاء البلغاء، إنهم أهل الشعر والخطابة...
فكرهم بيان الله التحدي مرة أخرى فقال:

﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين.. فإن لم تفعلوا ولن
تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ (١)

لكن هذه المرة - والآيات في المدينة المنورة - تغلق كل أبواب
المحاولات - والتي سنتحدث عنها بعد قليل - أمامهم ويحجزهم بأنهم لن
يستطيعوا الإتيان بمثل أية سورة منه، وهذا صريح بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾
والتعير الذي أورده بيان الله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ هو خير دليل
على أن القرآن كله معجز !!

والمقصود هنا أية سورة، فالكوثر سورة من سورة القرآن لا
تجاوز آياتها [٣] آيات، بل إن عدد كلماتها لا يتجاوز [١٠]
كلمات !! ومع ذلك يتحداهم الله، ثم يحجزهم بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا
بمثل ذلك !!

(١) سورة البقرة: / ٢٣ - ٢٤ /

فأين ذهبت فصاحتكم أيها العرب؟ ! أين ذهبت فنون
عريبتكم وخطاباتكم، وشعركم، وفنون بلاغتك؟ !
إذاً ما العمل؟

قالوا: إنه سحر! إنه شعر! إنه أساطير الأولين!

لكن مع ذلك العناد والاستهزاء والمكابرة، كانوا يعترفون أن
القرآن مسألة أكبر منهم بكثير، وأنه بهر بصرهم وبصائرهم، فهذا
ابن عباس يروي لنا هذه القصة:

جاء الوليد بن المغيرة - وكان من فصحاء العرب ووجهائهم - إلى
النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكانه مرقّ له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه،
فقال: يا عمة، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما لا يعطوكه، فإنه أتيت
محمدًا أتعرض لما قبله، قال الوليد: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً،
قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ ! فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالشعر مني، ولا
برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من

هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لم شمر أعلاه،
مغدق أسفله، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحط ما تحته...

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر!! (١)

إنه العناد فقط... إنه الإنبهار أمام معجزة الله المخالدة... لقد
اعترف بقيمة هذه المعجزة، ثم عاند واستخف عقله... واتبع شيطانه
فقال إنه سحر!! فجاء بيان الله خالداً دائماً يذمه على هذه الفعلة، إنها
آيات تتلى ومن سورة المدثر، يقول فيها: سبحانه تعالى:

﴿... ذرني ومن خلقت وحيداً... وجعلت له مالا ممدوداً... وبين
شهوداً... ومهدت له تمهيداً... ثم يطمع أن أزيد... كلا إنه كان لآياتنا
عنيداً... سارقه صعيداً... إنه فكر وقتل... فقتل كيف قدر... ثم قتل
كيف قدر... ثم نظر... ثم عبس وبسر... فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر...
إن هذا إلا قول البشر... سأصليه سقر... وما أدرك ما سقر... لا تبقي
ولا تذر... لواحة للبشر... عليها تسعة عشر...﴾ (١)

(١) القصة رواها الحاكم... وغيره.

(٢) سورة المدثر: ١١ - ٢٩ /

لكن هل هذا الذي حدث مع الوليد، لم يحدث مع غيره؟
أبدأ، لقد شهد بلغاء العرب وفصحاءهم بأعجاز القرآن، فهذه
كتب السيرة - كسيرة ابن اسحاق - تروي لنا هذه القصة: عتبة بن ربيعة
- وكان سيداً بليغاً شاعراً - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول
ﷺ في المسجد وحده، يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه
وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ حدث
ذلك عندما أسلم حمزة عم النبي ﷺ واشتد ساعد المسلمين.

فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السطة^(١) في العشيرة
والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به
جماعتهم وسفّيت به أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت به من
مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها
بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: ((قل يا أبا الوليد اسمع))

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به

(١) السطة: أي السطوة والسيادة....

شرفاً سودناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك مرئياً تراه لا تستطيع مرده
عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب
التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة
ومرسل الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد»

قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل.

قال:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم.. حم.. تنزيل من الرحمن الرحيم..
كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون.. بشيراً ونذيراً فأعرض
أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ (١)

ثم مضى رسول الله فيها وهو يقرأها عليه، فلما سمع عتبة أنصت
وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله إلى
السجدة منها، حتى الآية /٣٧/. فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد
ما سمعت فأنت وذاك»

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد

(١) سورة فصلت - السجدة -: ١ - ٤ /

جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما
ومراءك يا أبا الوليد؟

قال: ومرائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو
بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي،
خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ،
فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب
فملككم ملككم وعزته عزركم وكنتم أسعد به...

فقالوا: سحر! والله يا أبا الوليد بلسانه!!

قال: هذا مرأيي فيه فاصنعوا ما بدالكُم^(١)

.. لذلك سطر البيان الإلهي عنادهم، بل سخر منهم ومن
أفكارهم حين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن!!
بل مراحوا يصفقون ويحدثون أصواتاً.. لماذا كل ذلك الخوف من
القرآن؟!

(١) للتوسع في ذلك يراجع تفسير ابن كثير: ٩٠/٤

﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم

تغلبون﴾^(١)

لكن هل وقف العرب هكذا - مستسلمين - أمام هذا التحدي؟
أبداً، إنما حاولوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكانت محاولاتهم
سخيفة ومضحكة، فهذا مسيلمة بن حبيب - الكذاب - حاول أن يأتي
بمثل هذا القرآن، فكان كلامه أسخف من أن يكون ثراً ولا شعراً -
علماً أنه من كبار فصحاء العرب، ولا أريد أن أقول من هذا السخف
شيئاً، ومن أراد أن ينظر إلى ذلك فليراجع كتب السيرة والتاريخ ...

وتتالت الأيام ليأتي ابن المقفع - الأديب الكبير - حيث نسبوا إليه أنه
حاول أن يأتي بشيء من مثل القرآن فباء بالفشل ...

ثم يأتي الشاعر أبو العلاء المعري، والذي قيل عنه: إنه تقلب بين
الإيمان وثأرة، وبين الإلحاد وثأرة أخرى، فحاول أن يأتي بشيء ينافس القرآن
الكريم، فكان من كلامه الشيء المضحك ...

(أقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، إن الكافر لطويل الويل،

(١) سورة فصلت: ٢٦/

وإن العمر لمكفوف الذيل، تعدّ مدامرج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تسج
وما أخالك بناج!!)

.. كل هذا يدلنا دلالة واضحة على إعجاز القرآن، علماً أن
التحدي في القرآن ما نزال إلى يومنا هذا، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها..... (١)

(١) وأمثال ذلك قصة اسلام الفاروق عمر كما شرحها ابن اسحاق في سيرته
التي نقلها عنه ابن هشام.....

٢- إذا ما الفرق بين معجزات الأنبياء وبين معجزة

القرآن ؟

المعجزة هي: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي . سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية . . .

ولو تصفحنا مسيرة الأحداث التاريخية لوجدنا أن غالبية المعجزات التي جاءت على يد أنبياء الله لبني اسرائيل كانت حسية:

من ذلك أن سيدنا موسى . عليه السلام . جاء في نر من ، كانت حرفة الشعوذة والسحر هي الحرفة السائدة ، فكانت معجزته دحض هذا الأمر ، فكانت العصا التي أبطلت سحر السحرة كما حكى ذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها:

﴿... قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين: قال أولو جنتك بشيء مبين.. قال فات به إن كنت من الصادقين.. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين.. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.. قال للملاء حوله إن هذا لساحر عظيم.. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحر فماذا تأمرون: قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين.. يأتوك بكل سحار عليهم.. فجمع السحرة لميقات يوم معلوم.. وقيل

لنّاس هل أنتم مجتمعون.. لعننا تتبّع السحرة إن كانوا هم الغالبين..
فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين..
قال نعم وإنكم لمن المقربين: قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون..
فألقوا حبّاهم وعصيّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون.. فألقى
موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. فألقى السحرة ساجدين..
قالوا آمنا برب العالمين.. ربّ موسى وهارون.. قال آمنتم له قبل أن
أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السّحر فلسوف تعلمون لأقطعن
أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين.. قالوا لاضير إنا إلى
ربنا منقلبون.. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا أن كنا أول المؤمنين»^(١)

وقصة سيدنا موسى ومعجزة العصا التي حولها الله إلى ثعبان ليلتقف ما
يأفكون، مشروحة في كتب التفسير: كتفسير ابن كثير،
وقصص الأنبياء لابن كثير: (٤٥٩.٣٠٨) وغيرها..

وهذا هو المقصود بالمعجزة الحسية: أي أنه شيء تدمر به الحواس..
ملموس..

وهكذا الوتبعنا معجزات الأنبياء السابقين: فسيدنا إبراهيم أُلقي في النار والناس مجتمعون وهم يزورونه، لكن الله تعالى يحدثنا عن ذلك فيقول:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَشْدَهُ مِنْ قَبْلٍ وَكُنَّا بِعَالَمِينَ.. إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ.. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ.. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ.. قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ.. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ.. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ.. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ.. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.. قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ.. قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ.. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ.. ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ.. قَالَ أَفْتَعْبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ..

(١) سورة الشعراء: ٢٩ - ٥١

أَفَ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.. قَالُوا خَرَّقُوهُ
وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ.. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى
إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الْأَخْسَرِينَ.. ﴿١﴾

وشرح هذه المعجزة يطول، ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع ما
مرواه البخاري في التفسير برقم (٤٥٦٣) وكذلك ما مرواه أبو نعيم
في حلية الأولياء (٢٠/١) وما مرواه ابن جرير الطبري في تفسيره
(٤٤/١٧) وكذلك ما فصله ابن كثير في قصص الأنبياء: ١٤٢-١٦٤

ومثلها في معجزة سيدنا عيسى حيث أعاد إلى الميت روحه بإذن
الله تعالى.. وغيرها من المعجزات المحسّية التي ينقضي إعجازها بمجرد
موت من جرت على يديه، فنحن الآن.. مثلاً.. كيف نرى معجزة موسى-
عليه السلام..؟

ليست إلا إيماناً بما ورد على لسان النبي ﷺ وما ورد في القرآن
الكريم...

(١) سورة الأنبياء: ٥١/ - ٧٠/

أما معجزة سيدنا رسول الله ﷺ فهي معجزة عقلية، وذلك لأن القرآن الكريم رسالة السماء إلى الأرض، وهي غير محدودة بزمان أو مكان، إنما هي الرسالة الخاتمة الخالدة، والنبي المصطفى هو النبي الخاتم، لذلك لا يناسب أن يكون القرآن كالعصا أو كالناقة

أي كالمعجزات الحسية. بل لا بد أن يكون نوعاً من المعجزات التي تدخل في العقول فكراً وفي القلوب اعتقاداً ولا بد أن يتجدد طيلة الزمان، ويجب أن لا تنتهي علومه ويجب أن لا تخالفه الحقائق مهما تطورت الأيام والأعوام...

إن المعجزات السابقة مرآها الناس بأبصارهم، فلما انقضى أولئك الراؤون انقضت تلك المعجزات، أما معجزة القرآن الكريم فقد مرآها أولي البصيرة، وسيراها بعد رسول الله ﷺ كل من أوتي البصيرة والعقل المنفتح، وهذا مصداق قول المصطفى ﷺ فيما أخرجه البخاري:

((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً))

وما أجمل تعليق الإمام السيوطي على ذلك بقوله: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار، كناقصة صالح وعصا

موسى، ومعجزة القرآن تشهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها
أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهدته، والذي
يشاهد بعين العقل باقٍ، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً

... أما ما يتعلق بالكرامات: فذاك أمر شبيه بالمعجزة لكن
الخلافاً أن من تجري على يديه الكرامة لا يأتيه الوحي ولا الملائكة ولا
تنزل عليه الكتب وليس هو بالمعصوم والحديث في ذلك يطول، ومن أراد
التوسع فليراجع كتب العقيدة، وغيرها ...

٣. وجوه إعجاز القرآن الكريم:

تحدث العلماء في ذلك وأطالوا، وكل له مذهب خاص به في تعداد وشرح الوجوه، حتى أن بعضهم عددها بأنها عشرة أوجه، لكن بعضهم أدخلها في بعض، حتى أن السيوطي نقل عن القاضي عياض قوله في كتابه الشفا:

اعلم أن القرآن منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

١. حسن تأليفه والتسام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته المخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام، وأرباب هذا الشأن...

٢. صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيره.

قال: وكل واحد من هذين النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، نوع إعجاز على التحقيق، لم تقدم العرب على

الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، خلافاً لمن زعم أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب.

٣. ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن، فوُجد كما ورد.

٤. ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده عليه السلام على وجهه ويأتي به على نصّه، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب... (١)

لكن في المعاصرين من مراد على ذلك أوجه أخرى:
كالاعجاز العلمي للقرآن، والاعجاز العددي في القرآن، إلى غير ذلك...، لكننا سنكتفي بتعداد وشرح بسيط عن بعض هذه الأوجه، ومن أراد الاستزادة فليراجع الكتب المختصة التي تحدثت عن كل لون من ألوان الاعجاز القرآني.

(١) للتوسع يراجع الاتفاق للسيوطي: ١٧/٤ - ٢١

أ. الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:
عرف علماء العربية البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمتقضى الحال
ودقة اللفظ في انطباقه على المعنى المراد.

لذلك يطلق على هذا الوجه من الإعجاز أيضاً: الإعجاز اللفظي
(بدع نظمه، وعجيب تألف الفاظه وجمله وتاسقها بعضها مع بعض...)

إذاً:

لا بد من الوقوف أمام مظاهر الإعجاز البلاغي ولو بشكل يسير،
ولمعرفة ذلك ولو بشكل مختصر...

١. الجملة القرآنية:

يتجلى مظهر الإعجاز في الجملة القرآنية في أمور ثلاثة: (١)

١. الإتساق اللفظي والإيقاع الداخلي:

كما تعلم. فالجملة القرآنية مؤلفة من كلمات وحروف ذات

أصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والنطق، ومن ثم يتكون في نسق
جميل فيه إيقاع مرائع، وفي القرآن أمثلة لا تعد ولا تحصى على ذلك، لنقرأ قول
الله تعالى:

(١) بتصرف واختصار من روائع القرآن للدكتور البوطي: ١٤٤ - ١٤٨

﴿ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر.. وفجرنا الأرض عيونا
فالتقى الماء على أمر قد قدر.. وحملناه على ذات ألواح ودسر.. تجري
بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ (١)

.. تأمل تأسق الكلمات في كل جملة منها، ثم دقق النظر،
وتأمل تألف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها،
ثم آمن في تألف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها،
وعندها تعلم أن هذه الجمل القرآنية إنما صبت من الكلمات والحروف
والحركات في مقدام، وأن ذلك إنما قدر تقديرأ بعلم اللطيف الخبير،
وهيئات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب
الدقيقة...

٢. دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى:

هل يستطيع عالم ما أن يقول هذه الكلمة يجب أن نستغني عنها؟
إذ جميع آيات القرآن كذلك، فلنأخذ مثلاً قول الله تعالى:

(١) سورة القمر: ١١ - ١٤ /

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم
الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا تكلف نفس
إلا وسعها، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده، وعلى الوارث
مثل ذلك، فإن أرادوا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح
عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا
سلمتم ما أتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعلمون
بصير﴾ (١)

كلمات معدودات لا تزيد على ستين كلمة، ضمن آية واحدة من
سنة آلاف آية أوزيريد، فيها ثلاثة وعشرون حكماً مما يتعلق بنظام
الأسرة!!

ولو أراد الباحثون أن يتكلموا عن تلك الأحكام لكان لزاماً
عليهم أن يسودوا الصفحات الكثيرة لذلك...
لكنه الإعجاز القرآني من خلال جملة المتناسقة...

(١) سورة البقرة: ٢٢٣/

٣. التصوير الفني القرآني:

هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، والأمثلة في ذلك كثيرة حتى أن السيد قطب - رحمه الله تعالى - قد أفرد لهذا الكلام كتاباً مستقلاً عنوانه التصوير الفني في القرآن، والأمثلة هذه مأخوذة منه: - باختصار شديد. يريد أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل، هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة، لكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (١)

ويدعك ترسم بخيالك صورة تفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الجمل الغليظ في سم الخياط، ويحتار من أسماء الجمل الغليظ اسم (الجمل) خاصة في هذا المقام، ويدع للحسن أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة، في أعماق النفس، وقد وردوا إليها من طريق العين والحس.

(١) سورة الأعراف: ٤٠/

تخيلاً. وعبرا عليها من منافذ شتى، في هيئة وتوده، لا من منفذ الذهن وحده
في سرعة الذهن التجريدية.

.... ويبين أن الآلهة الذين يعبدون من دون الله، لا يسمعون ولا
يجيبون، لأنهم لا يعون ولا يتبينون، وأن دعاء عبادهم لهم عبث لا طائل
ومراء، فيختار صورة تبين هذا المعنى، وتجسم هذه الحالة، وتلمس المحس
والنفس بأقوى مما تلمسها العبارات العادية، عن المعاني الذهنية:
﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً
ونداءً صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (١)

هكذا ينعق الكفار بما لا يسمع، وينادون ما لا يفهم، فلا يصل
إليه من أصواتهم إلا دعاء مبهم، ونداء لا يفهم، فهؤلاء الآلهة لا يميزون
بين الأصوات ولا يفهمون مراميها، وهذا مثل، ولكنه صورة شاخصة،
صورة جماعة يدعون آلهة تصل إليها أصواتهم مبهم، فلا تفهم مما ومراءها
شيئاً، وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعواتهم، بجانب غفلة المدعوين
واستحالة إجابتهم!

(١) سورة البقرة: /١٧١/

..... ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيء الله لهم المعرفة، فيفرون منها كأن لم تهياً لهم أبداً، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم، بما علموا وما جهلوا، فلا هم استراحوا بالغفلة، ولا هم استراحوا بالمعرفة، فيرسم لهم هذه الهيئة:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (١)

وفي الصورة تحقير وتذير - يحقق الغرض الديني - ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة، فيها الحركة الدائبة، وهي صورة معهودة، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى، وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن ..

..... ويريد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق، حتى إذا جاءه الفرح نسي الله الذي فرّج عنه، ولكنه لا يقو لها في مثل هذا النسق الذهني، إنما يرسم صورة حافلة بالحركة المتجددة،

(١) سورة الأعراف: ١٧٦/

والمشاهد المتتابعة، ويرسم في خلالها نموذجاً إنسانياً، كثير التكرار في بني الإنسان:

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصفٌ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجانا من هذه ل نكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق﴾ (١)

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك، وتموج وتضطرب، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتخفّض!

ثم يؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد، أبلغ أداء وأوفاه..

.... وها هو يتحدث عن (الهنزمية) في رسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والإنفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحوادث معروض من دون أن يغفل منه قليل أو كثير:

(١) سورة يونس: ٢٢/

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا.. إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فُرُوقِكُمْ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْكُمْ وَإِذَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا.. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا.. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ يَبْغُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(١)

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف، لم يرنرها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساق في حركته الحركة الموقف كله؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان، وهذه هي الأبصار نراثة والنفوس ضائعة، وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزلاً شديداً، وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل، ويقولون: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، ويقولون لأهل المدينة: ارجعوا إلى بيوتكم فهي

(١) سورة الأحزاب: ٩/ - ١٣/

في خطر، وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إن بيوتنا
مكشوفة، وليست في حقيقتها كذلك: ﴿إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

وهكذا لا تقلت في الموقف حركة ولا سمة، إلا وهي مسجلة
ظاهرة، كأنها شاخصة حاضرة... تلك حادثة وقعت بالفعل، ولكن
صورتها ترسم (الخريرية) مطلقة من كل ملابسه، وما ينز يد عليها أو
ينقص منها إلا جزئيات في الوقائع! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر
في كل زمان، حيثما التقى الجمعان، وتعرض أحدهما للخذلان...

٢. الكلمة القرآنية:

يقول عبد الكريم الخطيب: أفاض الله سبحانه على الكلمات
هذا الفيض ونفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصا موسى عليه السلام -
لكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس منها،
كما أبقى على عصا موسى طبيعتها كذلك... (١)

والقرآن الكريم عند استخدامه الألفاظ كان دقيقاً إلى
درجة أن أي إنسان مهما بلغ علمه لو أراد إنزال كلمة مكان كلمة
في القرآن لما حقق الهدف المراد.

(١) إعجاز القرآن: ٢٩٥/٢

بل ذهب إلى حد أبعد من هذا، وذلك عندما وضع الفاظاً لها جرس ووزن وإيقاع تعطي القارئ إحساساً وشعوراً لا يجده إلا في القرآن الكريم، مثال ذلك:

يقول الله تعالى في قصة سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً...﴾ (١)

ماذا قصد القرآن بلفظة رخاء؟

إنه التصوير القرآني للحدث، حيث الصوت هو الذي يرسم ويوحى... وذلك من خلال وضع الضمة على الراء، وذلك يتطلب استدارة الشفتين وعندها لا بد من بذل جهد ما... حيث يكون بذلك قوة الريح! .. يقول د. البوطي: انظر حينما يصف البيان الإلهي دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي يتحدثن، منتقدات، عن مراودتها ليوسف عليه السلام. عن نفسه، إلى جلسة مراثة مترفة في بيتها، لتطلعهن فيها على يوسف عليه السلام - فيعذرنها فيما أقدمت عليه.. لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولا مريب، ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام،

(١) سورة ص: ٣٦/

وهو اللفظ الذي لا بد أن يعبر به أو بنظيره أي واحد من الناس مهما امتلك ناحية البلاغة والبيان، لم يعبر البيان الإلهي بهذه الكلمة لأنها إنما تصوّر شهوة المجاعين من حوله، وتقل الفكر والخيال إلى (المطبخ) بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائح وأسابيه.

فماذا عبر القرآن إذن؟ ... وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولا تمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟

لقد أبدع القرآن لذلك تعبيراً عجيباً رائعاً، فانظر ماذا يقول:
﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لنّ متكاً...﴾ (١)

﴿متكاً﴾: كلمة قرآنية، تصوّر لك من الطعام ذلك النوع الذي لا يقدم إلا ترفاً وتفكهاً وتجميلاً للمجلس وتوفيراً لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه على حالة من الراحة والالتكاء، والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها واشتقاقاتها فتعلق بها من بعد، ولولا ذلك لما اهتمدوا إليها ولحناتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون... (٢)

(١) سورة يوسف: ٣١/

(٢) من روائع القرآن: ١٤١ - ١٤٢

وقد اعتنى الأسلاف بهذا الجانب كثيراً، وألفوا في ذلك مؤلفات، فمن أراد التوسع فليرجع إلى: تفسير القرآن: الطبري، مجازات القرآن: لأبي عبيدة، تلخيص البيان في مجازات القرآن: للشريف الرضي، الغريب في مفردات القرآن: للراغب الأصفهاني

ب . الإعجاز التشريعي:

في مجتمع تسوده الفوضى، ويذهب التخلف والتخذلان فيه أي مذهب، فجأة يظهر قانون غريب ينظم المجتمعات كلها ويضع حلولاً لجميع المشاكل، فما هو يوزع أمور التركات، وما هو يضع لوائح السلم والحرب، وما هو يضع الأنظمة الكفيلة بتنظيم العلاقات الدولية كما يضع أنظمة كافية لتنظيم الأسرة . . . فهل بالإمكان أن يكون واضع هذا القانون هو رجل أمي يدعى محمد بن عبد الله ﷺ ؟ .

أبداً فالمسألة هي إعجاز القرآن الكريم حيث أتى بنظام شامل كافٍ للحقوق، مفصل للشؤون المالية والدولية والاجتماعية ونظم الحكم

ج . الإعجاز بالغيبيات:

حفل القرآن الكريم بالحديث عن الغيبات وذلك في أنواع أربع هي:

١. أحداث ستقع في زمن مقبل:

مروى الإمام مسلم بسنده المتصل إلى عبد الله بن مسعود أنه قال:
«لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدياراً قال: اللهم سبع
كسيع يوسف، فأخذتهم سنة حصت كل شيء، حتى أكلوا الجلود
والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهينة الدخان،
فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة
الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله عز وجل:
﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين.. يغشى الناس هذا
عذاب أليم.. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.. أتى لهم الذكري
وقد جاءهم رسول مبين.. ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون إنا كاشفوا
العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ (١)

قال: أفيكشف عذاب الآخرة؟

﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ (٢)

فالبطشة الكبرى هي يوم بدر

(١) سورة الدخان: ١٠/ - ١٦/

(٢) القصص في سورة الروم: ١/ - ٥/

وكذلك إخباره بعودة النصر للروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام
الفرس (١)

٢. أخبار الغيب الماضي:
وهذا موضوع متكرر في القرآن الكريم، ومن أمراء التوسع
فليراجع قصص القرآن لابن كثير وغيره.
٣. آيات تحدثت عن أشخاص بأعينهم: كموقف أبي لهب، حيث
حتم القرآن أنه سيصلي ناراً حامية!!
وكذلك مسألة الوليد بن المغيرة. وقد مررت معنا سابقاً.
٤. الإخبار عن غيب المحاضر: كما في سورة التوبة عن
المنافقين ...

د. إعجانه في مظهر إجلال الربوبية:
أي الآيات التي تكلم الله - عز وجل - فيها عن ذاته آمراً أو ناهياً أو
مخبراً، وهنا يتجلى منها جلال الربوبية وصفات الألوهية، وهي خير دليل على
أن القرآن من عند الله لا من تأليف أمي أو عبقرى أو ...!! لنستمع إلى هذه
الآيات التي ينخلم لها الفؤاد، وتحشع لها الجوارح أمام كلام الله تعالى:

(١) القصة في سورة الروم: ١/ - ٥/

﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرتهم حول جهنم جثياً، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ (١)

هـ. القصة القرآنية:

إنها نسق معجز لما لها من ميزات تفرد بها عن غيرها، فهي تهدف إلى إثبات نبوة النبي صلوات الله عليه (من خلال أمية الرسول . . .) كما في قوله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (٢)

كذلك، فتهدف القصة القرآنية إلى ترسيخ قواعد الدين . . .
وتهدف أيضاً إلى الوصول إلى حقيقة مفادها: أن النصر أخيراً لرسول الله ومن سار على نهجه كما في قوله تعالى بعد قصة فرعون:
﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ (٣)

(١) سورة مريم: ٦٨ - ٧٢ /

(٢) سورة هود: ٤٩ /

(٣) سورة غافر: ٥١ - ٥٢ /

أما أسلوبها المتميز:

١. لا ترد بتمامها دفعة واحدة

٢. فيها عظات وتوجيهات

٣. التكرار

٤. أسلوب القصة القرآنية. الفني. ولنضرب مثلاً - فقط - من أساليب القصة
نأخذه من التصوير الفني في القرآن:

يقول الله تعالى وهو يصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة:

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا، خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ خَوْفًا يُخْرِجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا
يَوْمَ عَسْرٌ﴾ (١)

فهذا مشهد من مشاهد الحشر، مختصر سريع، ولكنه شاخص
متحرك، مكتمل السمات والحركات، هذه جموع خارجة من
الأجداث في لحظة واحدة كأنها جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود
يساعد على تصور هذا المنظر العجيب) وهذه الجموع تسرع في سيرها

(١) سورة القمر: ٦ - ٨

نحو الداعية، دون أن تعرف لم يدعوها، فهو يدعوها إلى شيء فكسر لا
تدميره، خشعاً أبصارهم، وهذا يكمل الصورة ويمنحها السمة الأخيرة،
وفي أثناء هذا التجمع والإسراع والخشوع يقول الكافرون هذا يوم
عسر، فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصائر؟

وإن السامعين ليتخيلون اليوم التكر، فإذا هو حشد من الصور،
صورهم همهم. وانهم لمن المبعوثين. يتجلى فيها الهول المحي، الذي يؤثر في
نفس كل حي!

.... ومن نماذج القصة القرآنية: أصحاب الجنة^(١). جنة الدنيا لا جنة
الآخرة... وقصص الأنبياء مع أقوامهم... وقصة أصحاب
الكهف.....

و. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

لم يتحدث القدماء في هذا النوع من الإعجاز، لكنه ظهر مع ظهور
المخترعات الحديثة ومعرفة الشيء الكثير عن علم الأفلak والعلوم

(١) وقد فصلت الحديث عنها في كتابي: الأغنياء والفقراء في ميزان الشريعة
الاسلامية...

الطبية وعلوم الجيولوجيا والبيولوجيا والنبات و... فذهب قسم من العلماء إلى التوفيق بين ما توصل إليه العلم وبين ما ورد في كتاب الله، وبالفعل كان ذلك كثيراً...

لكن ذهب آخرون إلى إنكار ذلك كله محتجين أن القرآن ليس كتاباً علمياً، ولا طيباً ولا فلكياً... وأن هذه الاكتشافات قد تغير وقد تبدل بينما القرآن خالد ثابت...

والقول الذي أميل إليه هو أن نقول عن هذا اللون: الإشارات العلمية في كتاب الله تعالى، والحديث عن هذا الأمر طويل ولا مجال لذكره في هذه العجالة حول علوم القرآن، لكن نضرب بعض الأمثلة على ذلك^(١)

- عندما حدثت الزلازل الكبيرة أمثال زلزال أمريكا/ ١٩٨٨م والذي أودى بحياة (١٥٠) ألف نسمة، وزلزال مدينة كاليفورنيا عام ١٧٣٧م والذي قضى على (٣٠٠) ألف نسمة في الهند...

عندها تطلع الناس إلى إشارات القرآن إلى موضوع الزلازل فوجدوا آيات تتحدث عن ذلك:

(١) للتوسع في هذا الفصل يراجع كتابنا (تفكر ساعة)

﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض لنقصها من أطرافها والله يحكم لا
معقب الحكمة وهو سريع الحساب﴾ (١)

﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي
تمور﴾ (٢)

﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من
تحت أرجلكم﴾ (٣)

.. القوة النابذة التي تنشأ عن دوران الأرض حول نفسها تقذف ما
على سطح الأرض إلى الخارج، وعكسها القوة الجاذبة ولا بد من تعادل
هاتين القوتين، ولن يتم تعادلهما إلا بتوازن قشرة الأرض، والجبال التي هي
بمشابة الأوتاد تقوم بدور التوازن هذا .. فماذا قال القرآن في ذلك منذ
(١٥) قرناً حيث لا علوم حديثة ولا محترعات ولا ... ؟

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل
شيء موزون﴾ (٤)

(٢) سورة الملك: ١٦/

(١) سورة الرعد: ٤١/

(٤) سورة الحجر: ١٩/

(٣) سورة الأنعام: ٦٥/

﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي
 وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١)
 ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ (٢)
 ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي
 أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (٣)

... قال العلم الحديث إن الغلاف الجوي هو جسم غانري، مؤلف
 من طبقات عدة:

الأولى: من غانر الأوكسجين وغانر الآزوت، وغانرات نادرة.

الثانية: من غانر الأوزون.

الثالثة والرابعة والخامسة: من ذرات غانرية مشحونة بالكهرباء.

السادسة: من غانر الهالوجين.

السابعة: من غانر الهيدروجين.

(٢) سورة المرسلات: /٢٧/

(١) سورة النمل: /٦١/

(٣) سورة لقمان: /١٠/

ثم قال العلم: الدخان هو الجسم الغازي الذي يلف الكرة الأرضية... فبماذا أشار القرآن إلى الغلاف الجوي؟ ﴿... ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين...﴾ (١)

اكتشف في أوائل هذا القرن أن الرياح تحمل في طياتها جزيئات غبار ودخان وملح تتكثف حولها قطرات الماء مما يؤدي إلى هطول الأمطار... فهل أشار القرآن إلى هذا الاكتشاف؟

﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ (٢)

... من خلال الطائرات والأقمار الصناعية ومناطيد الأرصاد الجوية... وفي منتصف هذا القرن اكتشف العلم الحديث ما يلي:
الرياح تسوق السحاب ثم تجمعها ليخرج الماء منه، ثم ينزل من السماء. السحب. كالجبال من البرد المتجمد ليصيب الأرض... .

(١) سورة فصلت: /١١/

(٢) سورة الحجر: /٢٢/

فماذا قال الله تعالى عن ذلك:

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ (١)

... مراقب علماء مختصون تصرفات بعض الحيوانات فرأوا أمراً مذهلاً، من ذلك: أن بعض أنواع القرود، عندما يصعب عليها الوصول إلى عسل خلية النحل، تقطع غصناً من شجرة ثم تستخدمه كملقعة للوصول إلى الغاية!!

... وهناك هرة اعتاد أن يجد طعامه اليومي أمام بيت أحد المهتمين به ويأكله، وفي أحد الأيام لاحظ مرب البيت أن الهرة لم يعد يكتفي بالقليل مما كان يقدمه له من قبل، ولما مراقبه جيداً وجدته يذهب ببعض الطعام ويضعه أمام هرة أعمى!! فمن الذي علم هؤلاء ذلك؟!

﴿سبح اسم ربك الأعلى.. الذي خلق فسوى.. والذي قدر فهدى..﴾ (٢)

(١) سورة النور: ٤٣/

(٢) سورة الأعلى: ١/ - ٣/

﴿هذا خلق الله فاروئي ماذا خلق الدين من دونه﴾^(١)

ومن أراد المزيد من ذلك فليتأمل بعقله وبصيرته... ماذا في نفسه:
عقله... قلبه... أذنيه... كل شيء فيه... ؟!!!! - سبحانك يا أرحم
الراحمين-

نر. الإعجاز العددي في القرآن الكريم:

كما رأينا في الإعجاز العلمي، كذلك هنا فلم يعرف
القدماء هذا النوع من الإعجاز، لكنهم وقفوا حائرين أمام هذه
الأحرف التي ابتدأ بها القرآن بعض سورة مثل سورة آل عمران أو سورة
السجدة أو سورة البقرة...

وفي أواخر هذا القرن عُرف السّر وتمت الدراسة على نسق
واحد متكامل ليظهر ما يسمى الإعجاز العددي، من ذلك ما تكلم به
د. محمد مرشاد خليفة في كتيب أسماء الإعجاز العددي في القرآن
الكريم (عليها تسعة عشر) نختطف منه بعض الأمثلة:

كلمة (بسم) تكرر في القرآن الكريم (١٩) مرة بالضبط.

(١) سورة لقمان: ١١/

لفظ الجلالة (الله) تتكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٨) مرة = ١٩×١٤٢ .

كلمة (الرحمن) تتكرر في القرآن الكريم (٥٧) مرة = ٣×١٩ .

كلمة (الرحيم) تتكرر في القرآن الكريم (١١٤) \times مرة = ٦×١٩ .

كذلك فحروف (بسم الله الرحمن الرحيم) = ١٩ حرف

وعدد سورة القرآن الكريم (١١٤) مرة: ٦×١٩

فهو محمد ﷺ الأُمِّي الذي عاش في الصحراء هو الذي ألف هذا القرآن؟!!

ومن الذي علمه الحساب والمتواليات ولغات الكمبيوتر؟!!

لو أخذنا مثلاً سورة ق وتساءلنا لماذا افتتح الله السورة بهذا الحرف؟

تكرر، وورد هذا الحرف في هذه السورة (٥٧) مرة أي $[٣ \times ١٩]$ وكذلك سورة الشورى ابتدأت بـ ﴿حَم. عسق﴾ فلو عددنا كم ورد الحرف ق فيها أيضاً لوجدناه (٥٧) مرة أي $[٣ \times ١٩]$ إنهما سورتان في القرآن وورد فيهما - في افتتاحيتهما - الحرف (ق) فمن الذي علم النبي الأُمِّي محمداً - صلوات الله عليه - أن يوزع الحروف الأبجدية

توزيعاً يجعل الحرف (ق) في سورتين مختلفتين في الطول وفي وقت النزول مساوياً لبعضهما البعض ؟ !

فلو كان الحرف (ق) يرمز إلى القرآن الكريم فتفسير ذلك:
أن (١١٤) سورة هي التي تُولف القرآن كله . . .

. . . بل الإعجاز الأكبر وضوحاً في هذا الأمر:

أن في هذه السورة . سورة ق . نجد قوله تعالى:

﴿وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانَ لُوطَ﴾^(١)

هذه آية قصيرة نمر عليها دون تأمل، ودون كثير من التفكير،
لكن بعد الدراسة نجد أن قوم لوط مذكورون في القرآن الكريم
(١٢) مرة، وفي كل مرة يسمون قوم لوط، ماعدا سورة (ق) فإنهم
يسمون إخوان لوط !!

لكن لو ذكرها القرآن في هذه السورة كالعادة - قوم - لمراد
الحرف (ق) مرّاً واحداً، ولما لم الإعجاز !!

(١) سورة ق: ١٣ /

سورة القلم ابتدأها الله تعالى بقوله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾

وهذا الحرف (ن) لوعده دناه في هذه السورة لوجدناه (١٣٣) أي [٧×١٩]

فمن الذي برمج ذلك كله؟!؟

الحرف (ط): موجود في افتتاحية سورة طه والشعراء والنمل

والقصص على الشكل التالي: (١٠٧) مرات، وإذا جمعنا الحرف (هـ) في

السورتين الوحيدتين اللتين تبدئان بالحرف (هـ): مريم وطه وجدناه (٤٨٢)

ومجموع هذين الحرفين (هـ + ط) في هذه السورتين هو (٥٨٩) أي

[٣١×١٩] !!!

لا يوجد في اللغة العربية كلمة (بصطة) هكذا بالصاد، إنما

توجد كلمة (بسطة) بالسين لكن القرآن أوردتها بالصاد:

﴿... وزادكم في الخلق بصطة﴾^(١)

فلماذا حدث ذلك، والقرآن عربي؟!؟

في الإعجاز العددية يتبين أن الحرف (ص) موجود في افتتاحيات

ثلاث سور هي (الأعراف: المص) و(مريم: كهيعص) و(ص) فبإذا

(١) سورة الأعراف: ٦٩/

عددنا هذا الحرف في هذه السور الثلاث نجد أن المجموع (١٥٢) أي [٨×١٩] هنا ندرك أن في الآية السابقة، لو أورد الله تعالى كلمة بصطة بالسین لخطب العدد إلى (١٥١) ولاختل الضبط العددي هذا !!!

والأمثلة على ذلك النوع من الإعجاز القرآني كثيرة جداً.

ومن أراد الاستزادة فليعد إلى كتيب (عليها تسعة عشر) وإلى غيره من المؤلفات التي تهتم بهذا العلم...

إنه لا يسع الإنسان إلا القول أمام هذا الأمر كله:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(١)

... هذه بعض إعجازات القرآن الكريم:

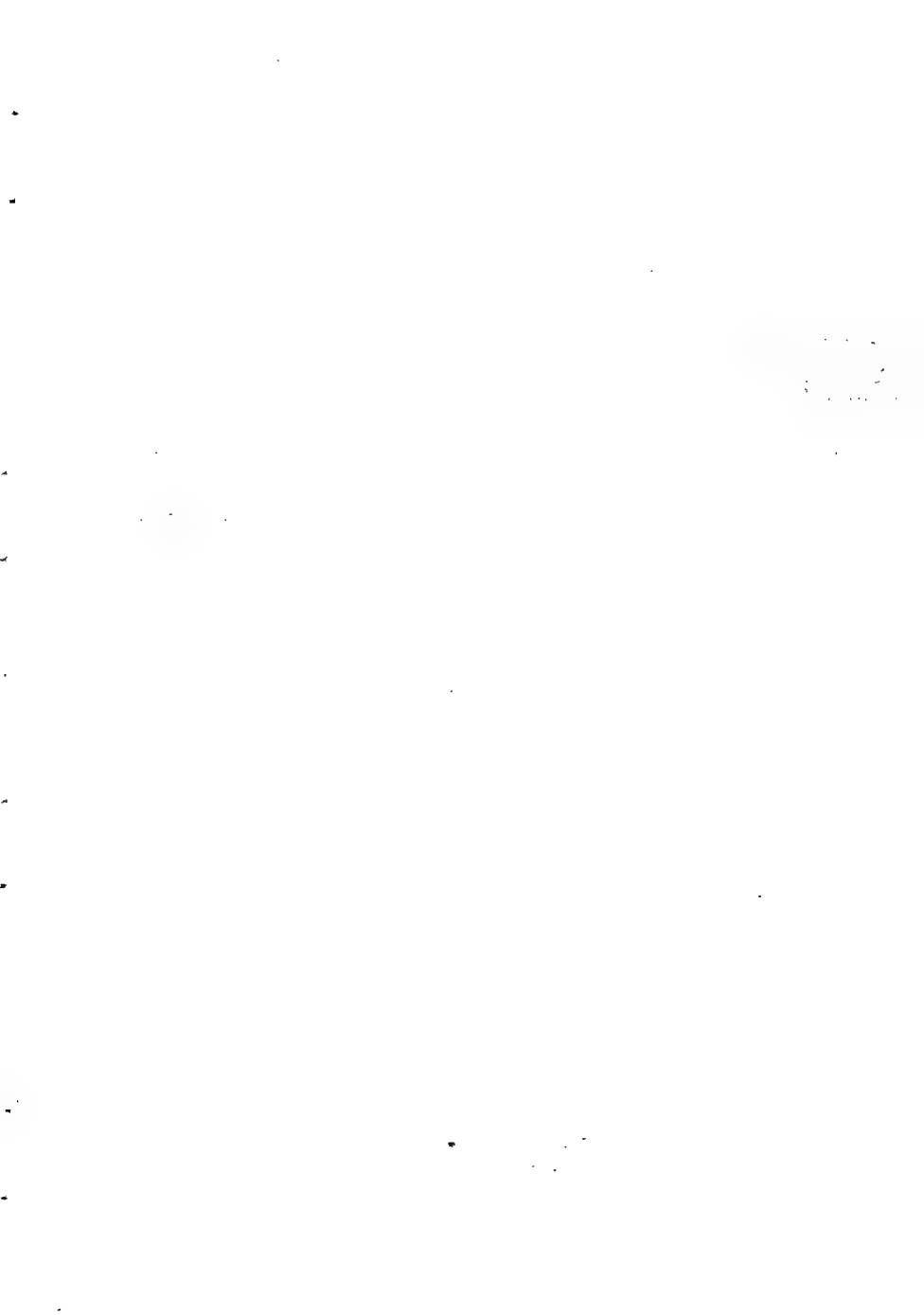
(من الناحية البلاغية... من الناحية التشريعية... من ناحية ذكر الغيبات... من ناحية إظهار جلال ربوبية الله تعالى... من الناحية القصصية... ومن الناحية العلمية... ومن الناحية العددية...)

(١) سورة الاسراء: ٨٨/

فهل هذا إعجاز القرآن كله؟ أبداً - فكما قلنا في المقدمة أن القرآن ثابت متجدد... لا تنتهي عجائبه ولا تنقضي آياته أتى ليجتمع كانت أحدث وسائل الركوب فيه الجميل!! فناسب وقتهم، بل كان دائماً الرمز والمثل الأعلى، بل كان متحدياً لهم... ثم تطوّر الزمان إلى أن وصلنا إلى عصر الحضارات والاكتشافات والاختراعات (طبية وفلكية وعلمية و...) فكان القرآن مرئداً في هذه المجالات كلها، نعم... إنه كتاب الله الخالد... المعجزة الدائمة... والذي لم يأت لآمة بذاتها... ولا لوقت بعينه... إنما نزل على قلب المصطفى ليناسب خاتمة الرسول المصطفى ﷺ وصدق الله تعالى حين قال:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (١)

(١) سورة الحجر: ٩/



... الخاتمة ...

١- ما هو أثر القرآن في النفوس؟

عندما نزل القرآن على رسول الله ﷺ، أصبح الرسول عندها قرآناً
يمشي على الأمرض:

وهذا ما رواه مسلم عن السيدة عائشة حيث قالت:

((..فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن))

أي أنه - صلوات الله عليه - كان يعيش في جو القرآن: فاصطبغ
سلوكه وتصرفاته بقيم القرآن، وأصبح عقله وحر كاته مع الله عندما
يتحدث من خلال القرآن...، ومراح يتأمل ويتدبر آلاء الله عندما يستمع إلى
القرآن وهو يتحدث عن الكون والفلك والآنفس...

ووقف موقف المتعظ المعبر عندما يتحدث القرآن عن الأمم السابقة
ونهاياتهم وعقوباتهم...

ثم تراه يبكي وتسيل دموعه على لحيته الشريفة عندما يكون
الحديث تخويفاً من عقوبة الله وناره... وما أجمل قول الشافعي في هذا
الصدق: إن السنة هي فهم النبي للقرآن...

... هكذا كانت حالة رسول الله ﷺ بالنسبة إلى القرآن
الكريم، فماذا عنا نحن؟!

٢ . كيف اعتنى السلف الصالح بالقرآن؟

اهتم سلف الأمة بالشيء الذي جاء لأجله القرآن، لا بنزخرته ولا بتغنيم الصوت فيه ولا...!! لكن اهتموا بمقاصد القرآن، حتى مروى في ذلك الشيء العُجاب: قال مجاهد: أحب المخلوق عند الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وذكر عليّ - كرم الله وجهه - جابراً بن عبد الله - مرضي الله عنه - ووصفه بالعلم، فقال له مرّجّل: جعلت فداك! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت!

فقال علي: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى:

﴿إِن الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(١)

ومروى الشعبي: أن مسروقاً مرّ حلّ إلى البصرة - من مكة - في تفسير آية واحدة! فلما وصل، قيل له: إن الذي يفسرها مرّ حلّ إلى الشام، فتجهز و مرّ حلّ إلى الشام، حتى علم تفسيرها!!!

.. إنهم اعتنوا بمقاصد القرآن الكريم (تفسراً... تدبراً... خشوعاً أمام تخويفه... وقوفاً عند أحكامه...) فكيف يعتني المسلمون

(١) سورة القصص: ٨٥/

(١) قلتُ للإخوة الشباب - في أحد الدروس - .

الرغيل الأول من هذه الأمة، اعتنوا بالقرآن في أربع مواطن:

١/ باللسان: عبادة (صوم، وصلاة، وحج..)

٢/ بالأذهان: تدبّر، ونظر، وتكرّر...

٣/ بالجنان: - بالقلوب - .

٤/ بالأركان: أي بجوارحهم، فطبّقوا أحكامه.....

...لكن مع تقادم الزمان، انحسر ذلك كله إلى اللسان!!

وهذا ما يشهده واقع المسلمين اليوم، فمجرد أن تمرّ في حيّ وتسمع تلاوة

القرآن تقول مباشرة:

يوجد في هذا الحي ميت!!

وكان القرآن أنزل لنقرأه على الأموات!! أو لنضعه في المكتبات!!

أو لنفتح به حفلاتنا و.....!!

لذلك أصبح القرآن فينا غريباً، وهذا ما هدف إليه أعداء هذه الأمة، حين

علموا أن عزها وتقدمها لا يكون إلا حين التمسك بهذا القرآن.....

...ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم....

٣ - الفرق الكبير!!

الرسل السابقون كان المنهج لديهم يختلف عن المعجزة! فسيدنا موسى معجزته العصا . . بينما منهجه التوراة، كذلك سيدنا عيسى معجزته الطب . . بينما منهجه الانجيل . . لكن سيدنا رسول الله ﷺ منهجه هو عين معجزته لذلك ظلّ المنهج محروساً بالمعجزة، وستظل المعجزة محروسة بالمنهج . . وهذا أمر رهيب جداً، على الجيل الناشئ أن يفهمه ليدرك ما يدور حوله . . !!

. . من هنا، عندما جرب الله تعالى الأمر السابقة من حيث طالعهم أن يحافظوا على الكتب التي نزلت على أنبيائهم، فما كان منهم إلا التحريف والتروير . . .

أما الرسالة الخاتمة فإن أتى عليها التحريف والتروير، فكيف يصبح الأمر مع الزمن؟

لذلك جاء الحفظ من حيث ترك الأمر لله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١)

إذاً: الله الحافظ للكتاب، لكنكم أيها المسلمون مطالبون بالتطبيق والسير على الخط، واتباع المنهج . . . فهل فعلتم ذلك؟

(١) سورة الحجر: ٩/

٤ - فما المخرج يا رسول الله؟

توحدت الأمة المنزقة بالقرآن الكريم، وأصبحت بعد الفارقة والضياح أمة تسود العالم وتحضره وتتوره بل تبوات مكانة أسمى من قبة الفلك في باذخ العلياء، ... كل ذلك كان عندما استمسكت الأمة بالقرآن: ترتيلاً وتدبراً وعملاً بما جاء فيه، في سلمهم: يقرؤونه ... بل يتنافسون في حفظه وتطبيق ما جاء فيه، حتى أن الزوجة كانت تبادر نروجها عندما تفتح له الباب لتقول له:

كم نزل اليوم من القرآن؟ وكم حفظت من حديث رسول الله؟ !!! أما في الحرب: فكانوا فرساناً في النهار، مهرباناً في الليل، لهم دوي بالقرآن كدوي النحل ...

واليوم وقد أحيط بالأمة المسلمة من كل مكان، قتل هناك ودماء هنا، سحق للعظام هناك، وتشريد وتعذيب واغتصاب وتهجير ... وفي كل مكان ... نعود لنسأل طيب القلوب سيدنا رسول الله ﷺ: فما المخرج من هذا كله يا رسول الله؟

«إن جبريل أخبرني أن أمتي مختلفة، قلت: فما المخرج؟ قال:

كتاب الله»

٥ - تخلفنا، ليس سببه القرآن !!

قد يلتفت الشاب حوله، فيرى كل المحاضرات والاختراعات والتقدم العلمي والطبي . . . مصدره من بلاد لا تدين إلى القرآن بشيء، ثم يعود إلى ما نحن عليه فيرى التخلف والمرض والجمل . . . فيقفز إلى ذهنه سؤال: هل سبب تخلفنا هو القرآن الكريم ؟!

والجواب باختصار: أننا عندما تركنا تعاليم القرآن حلّ بنا مانرا اليوم، ولو عدنا إلى تعاليم القرآن لرأينا عكس ما نحن عليه، ولنتساءل هذه الأسئلة:

ماذا فعل المسلمون بصناعاتهم الحربية؟ وفي القرآن سورة الحشر والحديد والنصر، كما في قوله تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ (١)

وهذا سيدنا داود يقص علينا القرآن قصته: في إقامة الصناعات الحربية:

(١) سورة الحديد: ٢٥/

﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوتبي معه والطير وألنا له الحديد.. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾ (١)

ثم يحدثنا بعد قليل عن الصناعات السلمية عند سيدنا سليمان:
﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير.. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات..﴾ (٢)

... ماذا فعل المسلمون اليوم بصناعاتهم الجلدية و... وقرآنهم

يقول:

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين...﴾ (٣)

(١) سورة سبأ: ١٠ - ١١ /

(٢) سورة سبأ: ١٢ - ١٣ /

(٣) سورة النحل: ٨٠ /

... ماذا فعل المسلمون بالطاقة الشمسية... وقرأ أنهم يصدق فوق

مرؤوسهم:

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل

لتعلموا عدد السنين والحساب...﴾ (١)

... ماذا فعل المسلمون اليوم بجوانب الري والسدود.. وقرأ أنهم

يتلو عليهم أخبار السابقين:

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا

من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور.. فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حطٍ وأثلٍ

وشيءٍ من سدرٍ قليل...﴾ (٢)

... ماذا فعل المسلمون أمام علوم كثيرة، وقرأ أنهم صباح مساء

يناديهم:

﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين.. وفي خلقكم

وما يبيث من دابة آيات لقوم يوقنون.. واختلاف الليل والنهار وما

(١) سورة يوسف: ٥/

(٢) سورة سبأ: ١٥/ - ١٦/

أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف
الرياح آيات لقوم يعقلون.. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي
حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ﴿١﴾

إذا: ضاع القرآن بين المسلمين، والذي اشترك في تضييعه: عالم
جامد، وجاهلٌ جاحد!!

ولا سبيل إلى عزة المسلمين إلا بالعودة إلى القرآن الكريم، وذلك
بأن تصطبغ كل جزئيات حياتهم بحركة القرآن، وعندها لن تجد ما
نحن عليه، يبقى، ولن يدوم...

(١) سورة الجاثية: ٣/ - ٦/ وللتوسع في ذلك يراجع كتابنا (القرآن والحديث
في العلم الحديث).

٦. ما هو واجبنا نحو القرآن؟

قال أحد العلماء العاملين - رحمه الله تعالى -: إن موقف الناس من كتاب الله في هذه الأيام، مثلهم كمثل جماعة أحاط بهم الظلام من كل مكان، فهم يتخبطون فيه، ويسرون فيه على غير هدى، فتارة يقعون في هاوية، وأخرى يصطدمون بحجر، وثالثة يصطدم بعضهم ببعض ولا ينزلون هكذا يخبطون خطاً عشوائياً، ويسرون في ظلام دامس، مع أن بين أيديهم نيراً كبرياً لو وصلت إليه أصابعهم، فإن حركة يسيرة يمكن أن توقد مصباحاً مشرقاً ميراً.

... والعالم بأسره يتخبط في دياجير الظلام ... والعالم كله يسير في مسالكه على غير هدى، أفلستِ النظر وتحطم المجتمع، وتدهورت القوميات، وكلما وضع الناس لأنفسهم نظاماً، انقلب مرأساً على عقب، والناس لا يجدون الآن سبيلاً إلا الدعاء والحزن والبكاء، ومن الغريب أن بين أيديهم القرآن الكريم كتاب الله تبارك وتعالى:

كالعيس في البداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول.

إنهم لا يستطيعون سبيلاً إلى الهداية، وبين أيديهم النور الكامل:
﴿ولكن جعلناه نوراً لهدى به من نشاء من عبادنا، وإليك لتهدي إلى
صراط مستقيم﴾ (١)

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع
رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى
صراط مستقيم﴾ (٢)

﴿قامنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا، والله بما تعملون
خبير﴾ (٣)

إذاً: أين يقف العالم اليوم؟

أهل الكفر لا يؤمنون بهذا النور، وأهل الإيمان لا يعلمون به، وهذا
موقف مؤلم، موقف كله عقوق للإنسانية...

ومن هنا يجب على الذين اهتدوا بهدى القرآن أن يعملوا على أن يتقذوا
أنفسهم وأن يتقذوا الناس...

(١) سورة الشورى: ٥٢/

(٢) سورة المائدة: ١٥ - ١٦/

(٣) سورة التغابن: ٨/

فما هو واجبنا . كمسلمين آمنوا بالقرآن . نحو القرآن الكريم ؟
 ١- أن نؤمن إيماناً جازماً بأن الإسلام هو المنهج الصالح لإيقاد هذه
 الأمة من كل ناحية من نواحي حياتها ، ولا سبيل للإيقاد إلا منهاجاً
 اجتماعياً مستمداً من كتاب الله ، وما عداه فسييله الفشل . . ولو ضربنا
 مثلاً : يعالجون الأمور الاقتصادية بتسريعات لا تسمن ولا تغني من جوع :
 الربا هو الحل . . الفائدة في البنوك . . نظم غريبة تامة ، ونظم شرعية
 أخرى . . بينما نجد القرآن يركز على أفكار معينة لحل مشكلة
 الفقر : بتطبيق الزكاة ، بتحريم الربا ، بفرض الوسائل الكفيلة بالعمل ،
 بمنع التبذير والتسرف . . بالإحسان إلى الفقراء وطلب التراحم بين الناس
 و . . (١)

وكذلك في جميع المجالات : الصحية ، والاجتماعية و . . .
 ٢- أن نتخذ القرآن الكريم معلماً لنا ، وأنيساً ، ومرفيقاً ،
 وناصحاً ، وأن نجعله وسيلة لتقوية الصلة بيننا وبين الله تعالى ، وذلك بأن يجعل
 كل واحد منا لنفسه ومرداً يلتزمه . كل على حسب وقته وفراغه . . .
 وهذا ما كان عليه سلف هذه الأمة . . فهذا عمر بن عبد العزيز

(١) وقد فصلت ذلك في كتابي : المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة .

مرضى الله عنه. كان إذا شغل بمصالح المسلمين جاء إلى المصحف وقرأ ولو آيتين ثم يقول: أفعل ذلك حتى لا أكون ممن اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ..

٣- علينا أنها الإخوة الناشئة. أن نلاحظ آداب التلاوة حين قراءة القرآن، وآداب الاستماع عند سماعه، وتدبره والتأثر به، كما قال حبيبنا المصطفى صلوات الله عليه:

((إن هذا القرآن نزل مجزون، فإن قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا)).

وأنا لا أقول أن يكون تأثرنا، كما كان سلفنا الصالح: فعمر - رضي الله عنه - عندما قرأ قوله تعالى:

﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور.. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾^(١)

قال عمر: قسمُ حقٍّ ورب الكعبة، وخسر مغشياً عليه، فاحتمله

(١) سورة الطور: ١/ - ٨/

صحابي يدعى أسلم وذهب به إلى بيته، وبقي مريضاً ثلاثين يوماً يعود به الناس!!

لكن ليكن حالنا عند سماع القرآن - على الأقل - كأننا نشي حين سمع القرآن من سيدنا جعفر، فاضت عيناه من الدمع!! ولنكن كما قال تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١)

٤. علينا أن نعمل بأحكام القرآن، سواء كانت على مستوى الفرد: صلاة وصيام وزكاة وحج واستغفار وأخلاق وتوبة... وسواء كانت على مستوى المجتمع: حدود وجهاد... ولا فائدة من تلاوة القرآن دون الوقوف عند حلاله وعند حرامه، عند نهيه وعند أمره....

(١) سورة الزمر: /٢٣/

٧ . وقبل الوداع، لنرفع الأكف إلى الله، ونقول: آمين..

اللهم اجعل القرآن لنا في ظل الليالي مؤسداً، ومن نزغات الشياطين
وخطرات الوسوس حارساً، ولا أقدامنا عن قتلها إلى المعاصي حابساً،
ولا كسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفة مُخرساً، ولجوارحنا عن
اقتراف الآثام مزاجراً، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشراً
حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه ونزواجس أمثاله التي ضُغفت الجبال
الرواسي على صلابتها عن احتماها .

... وسلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ...

... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص،
دار الكتاب العربي - بيروت.

٢- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله (ابن العربي)، دار
الكتب العلمية - بيروت.

٣- المجموع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي، دار احياء التراث العربي - بيروت.

٤- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار
الكتب العلمية - بيروت.

٥- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، دار الأندلس - بيروت.

٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر -
بيروت.

٧- البرهان في علوم القرآن، للإمام الزمخشري، دار المعرفة - بيروت.

٨- الإتيان في علوم القرآن، للإمام السيوطي، المكتبة العصرية- بيروت.

٩- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار احياء التراث العربي- بيروت.

١٠- كتاب المصاحف، لأبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتب العلمية- بيروت.

١١- أسباب نزول القرآن، للواحدي، دار الكتاب الجديد- مصر.

١٢- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، دار احياء العلوم- بيروت.

١٣- إعجاز القرآن، للباقلاني، دار المعارف بمصر.

١٤- تناسق الدرر في تناسب السور، للسيوطي، دار الكتب العلمية.

١٥- المحكم في نقط المصاحف، عثمان بن سعيد الداني، دار الفكر بدمشق.

١٦- فنون الأتقان في عيون علوم القرآن، لابن الجوزي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

١٧- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري، دار الجيل- بيروت.

- ١٨- نواسخ القرآن، لابن الجوزي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- ١٩- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لابن خزم، دار الكتب العلمية.
- ٢٠- التشرية في القراءات العشر، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
- ٢١- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، دار الشروق. بيروت.
- ٢٢- ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، لابن الأثيري النحوي. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م.
- ٢٣- تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، ط/ عيسى البابي الحلبي ١٩٥٥م القاهرة.
- ٢٤- قصص الأنبياء، لابن كثير، دار احياء التراث العربي. بيروت.
- ٢٥- كتب الحديث الشريف: الصحاح والسنن والمسانيد و... .
- ٢٦- مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ط ١٧، دار العلم للملايين. بيروت.
- ٢٧- التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة بمصر.

- ٢٨- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، دار الكتب العلمية.
- ٢٩- حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار القلم بدمشق.
- ٣٠- إحياء علوم الدين، للغزالي، دار الخير.
- ٣١- محاضرات في علوم القرآن، الدكتور نور الدين عتر (جامعة دمشق).
- ٣٢- من مروائع القرآن، الدكتور سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي.
- ٣٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٣٤- الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية، محمد عمر الحاجي، دار المكتبي بدمشق.
- ٣٥- كيف تتعامل مع القرآن؟ الشيخ محمد الغزالي، منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي بأمركا.
- ٣٦- لسان العرب (قاموس) لابن منظور، دار المعارف

فهرس الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة
علم التفسير.....	٥
علم إعجاز القرآن.....	٥٧
الحاتمة وفيها:.....	١٠٥
١- ماهو أثر القرآن في النفوس؟	
٢- كيف اعتنى السلف الصالح بالقرآن؟	
٣- الفرق الكبير!!	
٤- فما المخرج يامر سول الله؟	
٥- تخلفنا ليس سبيه القرآن!!	
٦- ماهو واجبنا نحو القرآن؟	
٧- دعاء الحتام.	
المصادر والمراجع.....	١٢٣
الفهرس.....	١٢٧

1875

1876

1877

1878

1879

1880

1881

1882

بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ . . .

ثم الفراغ من كتابة سلسلة:

البيان في علوم القرآن ((للاشعة))

في صبيحة يوم الجمعة المبارك: ٩ صفر ١٤١٦ هـ

وسيصدر قريباً - بإذن الله تعالى - سلسلة:

الوجيز في علوم الحديث ((للاشعة))

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

:أبو عمر